فخري البارودي

مذكرات البارودي

من شاء منكم أن يعزّ بلادهُ
فليسع سعي معزّها البارودي

الرصافي

الجزء الاول

بيروت - دمشق ١٩٥١

١٣٧١هـ - ١٩٥١ م

إذا اختصم الحق وأخي، فأنا مع الحق — ارسطو

مذكرات البارودي

ستون سنة تتكلم

بقلم

فخري البارودي

بيروت - دمشق ١٩٥١

طبع على مطـابع دار «الحيــاة»

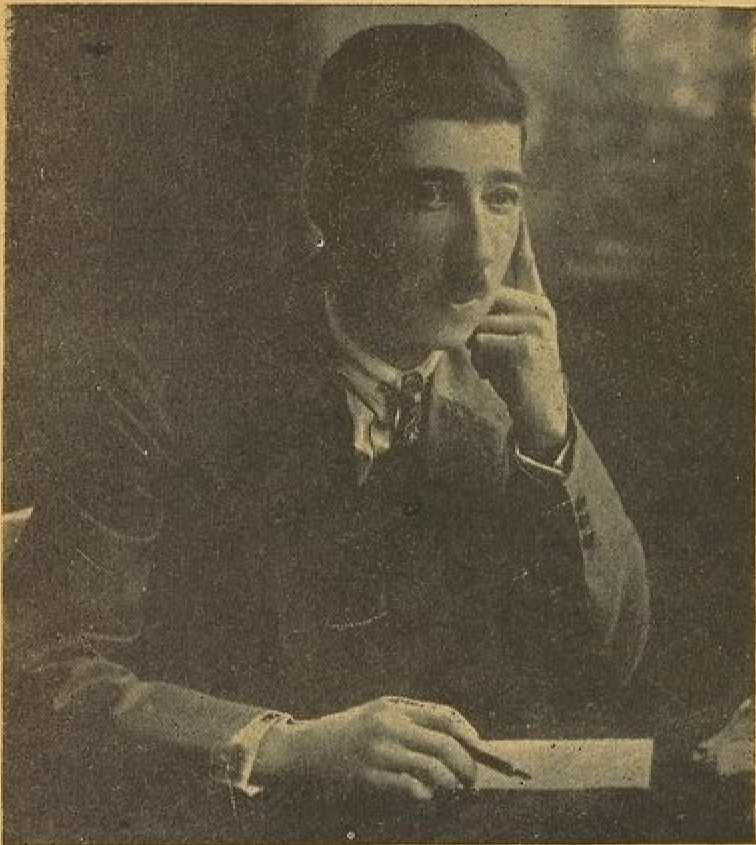
الاهداء

الى شبـــاب العرب :

اهدي مذكراتي هذه ليطلعوا فيها على صفحات من تــــاريخ بـــلادهم الحديث لعلهم يجدون فيها عبرة وذكرى .

دمشق ، اول اب ١٩٥١

فخري البارودي



رسمي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

طلب الي كثير من الاخوان ان انشر مذكراتي . ولما لم تكن لدي مذكرات يومية مدونة ، فقد اعتذرت . ولما الحوا ، عدت الى ما دونته ، والى ذاكرتي استمد منها الوحي .

ليس المهم فى كتابة المذكرات سرد الحوادث التى تمر بالانسان بل بيان اثرها فى حياته ، والواقع ان المذكرات التى تعنى بالتوجيه الخفي هي التى تنال شأنا . فسرد حوادث البطولة هو توجيه خفي نحو البطولة ، وذكر الام الوطن وبيان ما مر به من محن ، هو توجيه غير مباشر لتقديس الوطن والدفاع عنه .

واهم ما فى المذكرات هو وصف حياة الكاتب وروحه وبيئته ليجد فيها القارىء صورة واضحة للكاتب وللمجتمع فيحس وهو يقراها ان الكاتب حي الى جانبه ، يحدثه ويقص عليه اخباره ، فيكون شاهد عيان خالد ، يساعد المؤرخ على ايضاح الحقائق .

ويجب ايضا الا تفقد المذكرات روح الحكاية ، وان يحس القارىء انه يقرأ فيها قصة حياة ، وحياة وطن فى فترة معينة

ـ لا ان يشعر انه امام كتاب معلومات جاف . فالمعلومات تفقد رونقها اذا لم تكن مطبوعة بطابع الكاتب ، ممزوجة بعاطفته وخفقات قلبه .

على هذا اقدم الى القراء هذه المذكرات ، كتبتها بكل صدق وامانة ، وعملت بقول الحكيم القائل : «اذا اختصم اخي مع الحق فانا مع الحق » .

دمشق فى ١ـ٨ـ١٩٥١

فخري البارودي

هارب من الموت

فى صباح يوم من ايام الخريف ، سنة ١١٨٩ هجرية (١٧٧٥ ميلادية) ، طرق شاب غريب باب دار آل الشويكي ، فى محلة «الشويكة» اليوم ، وكانت فى ذلك الزمن قرية فى ضاحية دمشق القريبة ، ففتح الباب ، وخرج منه كهل استقبل الطارق بشاشة .

كان الطارق فتى فى ريعان الشباب ، ثيابه رثة ملطخة ، فحيا صاحب الدار ، وسأله : اهذه دار الشيخ عبد الحليم الشويكي ؟

فاجابه : نعم هذه داره ، فماذا تريد ؟

قال : لي حديث طويل اريد ان اقصه عليك !

ادخله الرجل الى الغرفة الاولى من الدار ، المعدة للضيوف ، ورحب به . وما ان استقر به المقام ، حتى طلب شيئا يأكله ، قائلا انه لم يذق طعاما منذ يومين . فسارع صاحب الدار وجلب ما وجد من حواضر البيت ، فأقبل الضيف يلتهم الطعام التهاما لشدة جوعه

حدق صاحب البيت ، سعيد بن عبد الحليم الشويكي ، فى الضيف الشاب ، فتمثل فيه ملامح صديق قديم لجده عبد الغفار الشويكي ، يدعى الشيخ ظاهر العمر(١) ، فقد كان ظاهر العمر –

---

(١) جاء فى دائرة معارف البستاني ان ظاهر العمر كان حاكم عكاء وشيخ مشايخ بلاد صفد . وما لبث ان ضم اليه طبريا وصيدا . خرج على الدولة العثمانية فى اواسط القرن الثامن عشر ، فجهزت الدولة عدة حملات ضده ، فعادت كلها خائبة . وفى سنة ١١٨٩هجرية جرد حاكم مصر محمد ابو الذهب حملة ضد الظاهر ، بايعاز من الدولة ، فاستولى على غزة ، ثم على عكا . وقد هرب الظاهر اولا الى جبال صفد ، ثم الى صيدا التي كان يحكمها احد رجاله احمد اغا الدنكزلي . وهنا جردت الدولة اسطولا حاصر صيدا بقيادة حسن باشا ، فانقلب الدنكزلي على سيده ورفض محاربة الاتراك ، وظل الظاهر يحاربهم وحده حتى قطع امله من النصر ، ففر من صيدا قاصدا بلاد بشارة ليحتمي عند صديقه الشيخ قبلان ، من اسرة علي الصغير ، فى قلعة هونين . وفى الطريق كمن له الدنكزلي وقتله.

كهذا الشاب ـ ابيض البشرة ، واسع العينين ، صغير الفم ، رقيق الشفتين ، طويل الحاجبين ، مدور الانف ، طويل الذراعين ، خفيف الشعر اسوده(٢) . وكان ظاهر العمر يتردد على بيت عبد الغفار قديما . فلما توفي عبد الغفار ، استدعى ظاهر نجله الشيخ عبد الحليم الى عكا ، فسافر اليها بين ١٧٣٢ و١٧٣٥ . وكان عبد الحيم فقيها شاعرا ، ففوض اليه ظاهر امر الفتوى فى عكا والبلاد الخاضعة لحكمه ، واختاره مربيا لاولاده ، يدرسهم الاداب والفقه .

ظل سعيد يتفرس فى وجه ضيفه وهو يأكل ، ويسائل نفسه : أيكون هذا الشاب من انسباء ظاهر العمر ؟ لقد سمع سعيد اخيرا ان الحرب وقعت بين ظاهر العمر والعثمانيين ، وان حاكم مصر ، « ابا الذهب» جرد جيشا وزحف به على عكا ، ففر ظاهر العمر امامه. ترى هل فر هذا الشاب ، هو الاخر ، من عكا ، وجاء ينشد ملاذا فى دار الشويكي ؟

***

لم يكن سعيد مخطئا فى حدسه ، اذ ما انتهى الضيف من الاكل حتى قال : رأيتك تحدق بي كثيرا ، فهل تريد ان تعرف من انا ؟

فاجاب سعيد : نعم ... يخيل لي انك من آل الظاهر ، اليس كذلك يا ضيف الخير ؟

قال : اصبت ، انا محمد بن احمد بن ظاهر العمر . وقد تركت قريبكم الشيخ عبد الحليم الشويكي فى بلاد بشاره ، واظنه التجأ الى بيت علي الصغير «شيخ المتاولة» .

فنهض سعيد وعانقه قائلا : انا ابن الشيخ عبد الحليم !

راح الضيف يسرد حكايته ، فقال ما خلاصته : بعد احتلال عكا ، هربت مع جدي الظاهر ، وبقيت معه حتى مقتله على يد احمد

---

(٢) هذه صفات ظاهر العمر كما وردت فى تاريخ «الشيخ ظاهر العمر» للخوري قسطنطين الباشا المخلصي (ص ١٤٩) .

اغا الدنكزلي . وكان والدك الشيخ عبد الحليم معنا ، فتركته فى بلاد بشاره ، ولجأت هناك الى بيت علي الصغير ، وفى نيتي السفر الى دمشق ، وقد آووني واطعموني ، ثم دلوني على الطريق الى دمشق. ومنذ خمسة ايام وانا اسعى من قرية الى قرية ، حتى وصلت صباح اليوم الى هنا . ولما لم يكن لنا فى دمشق من اصدقاء غير آل الشويكي، فقد بحثت عنهم ، فدلوني على داركم ، واحمد الله اني حظيت بك ، اني اريد الاختفاء فى مكان لا تصل اليه يد الدولة ، لاكون امينا على حياتي حتى يقضي الله امرا كان مفعولا ، فاشر علي بما افعل !

فطمانه سعيد وهدأ من روعه ، قائلا : انت بعد اليوم منا ، فلا باس عليك . قم واسترح ، وغدا نرى ما يكون !

***

فى صباح اليوم التالي اصطحبه سعيد الى الحمام ، واستبدل له اسماله بثياب شامية . وبعد ايام اخذه الى رئيس مصنع بارود (الأوجاق ــ اليكيجري) الانكشارية وكان صديقا له، فقدم اليه محمدا، زاعما انه نسيبه ، وطلب له عملا فى المصنع ، فقبله الرئيس حالا وسلمه الى «الاسطه» ، اي رئيس العملة ، ليعلمه الصنعة . ومنذ ذلك الحين ، تحول اسمه من محمد الظاهر الى محمد البارودي .

وبعد زمن اتقن محمد الصنعة، واصبح رئيسا للمصنع، واحرز رتبة الاغوية . ولم يمض على دخوله دمشق بضع سنوات حتى تزوج ورزق عدة أولاد . وقد لاقى حتفه بحادثة انفجار فى المصنع ، فقذفه الانفجار من محلة السنجقدار الى امام دائرة المشيرية فى الساحة العسكرية (وهي قصر العدل اليوم) ، فتكسرت اضلاعه ، ولم يسلم غير راسه . وقد بقي حيا ثلاثة ايام ينازع الموت . وفى اليوم الثالث عاد ولده حسن من الحج ، فمات قرير العين برؤيته .

***

يتضح مما ذكرت ، ان جدي الاول ، محمد بن احمد بن ظاهر العمر ، الذي تلقب بالبارودي ، دخل دمشق سنة ١٧٧٥ م. وعلى

هذا الاساس اكون انا : فخري بن محمود بن محمد حسن بن محمد بن حسن بن محمد الظاهر (الملقب بالبارودي) بن احمد بن ظاهر العمر

اما نسبي من جهة والدتي ، فانا فخري بن نظيرة ابنة امين بن سليمان العلمي ، المعروف بالكيلاراميني ، واصله من القدس .

ولم اذكر نسبي هذا على سبيل التفاخر ، بل لتسجيل الواقع ، ورحم الله الشاعر القائل :

قالوا : «ابن من انت يا هذا ؟» ، فقلت لهم :
«اني امرؤ جده الاعلى ابو البشر !»

قالوا : « وهل نال مجدا ؟ » ، قلت : « واعجبي ،
اتسالوني بمجد ليس من ثمري ؟ »

***

ولدت فى الساعة الرابعة من صباح يوم الخميس ، الواقع فى ٥ رجب سنة ١٣٠٤ هجرية ، فى دارنا فى حي القنوات بدمشق .



والدي محمود البارودي
(توفى ١٣٣٢ هجرية)

وكان جدي محمد حسن البارودي قد سافر يومئذ الى بيروت فى طريقه الى الاستانة ، ونزل فيها ضيفا على صديقه فخري بك ، والد الداماد احمد نامي ، فابرق كاتب دائرتنا يوسف افندي الكاتب الى جدي يبشره بولادتي ، فاجابه جدي مباركا ، تاركا لوالدي الخيار فى ان يسميني اما «محمد فخر الدين» او « واصل » ،



جدي لوالدي محمد حسن البارودي
(توفي ١٣٠٧ هجريـــــة)

فاختار والدي الاسم الاول . ومع الزمن حذف الناس منه اسم « محمد » ، ثم ما لبثوا ان لقبوني بـ « فخري » وحذفوا « الدين » ، وهكذا استقر اسمي نهائيا على « فخري » وحده ، وما زال كذلك الى اليـــوم .

●



جدي لوالدتي امين العلمي الكيلاراميني ، وهو بلباس « السلاحشور » اي حرس السلطـــان عبد العزيز .

عهد الكتاتيب

نشأت فى محيط «ارستقراطي» بالنسبة لذلك الزمن . كان آل البكري اخوال والدي ، وابناء العظم ابناء عمة والدتي ، وآل العلمي اولاد عمها ، وآل العابد والركابي وشيخ الارض والشيخ فضلي والحسيبي وغيرهم من اصهارنا . ونظرا لكثرة التزاوج بين الاسر الدمشقية ، كانت اسر كثيرة تمت الينا بالنسب .

ولما كنت وحيدا لوالدي ، ولم يكن فى هذا الفرع من آل البارودي ولد ذكر سواي ، فقد ربيت بالدلع والدلال ، على ايادي الاهل واكتاف الحشم . ولولا لطف الله ، وانتسابي فى شبابي لحلقة الناهضين من تلامذة الشيخ ظاهر الجزائري رئيس الاحرار فى القرن التاسع عشر ، لكنت اليوم فى عداد الموتى الاحياء !

كان ذلك المحيط محيط نفاق وجهل . وكل من اراد التقرب من الاغنياء لقضاء حاجة – حتى ولو كان منتسبا الى الامام علي كرم الله وجهه ، او الى احد الصحابة الكرام رضي الله عنهم – يغدق عليهم المديح والثناء جزافا ، فيصدقونه ، وتنتفخ رؤوسهم بغرور دائم . ولا ابالغ اذا قلت ان اكثرهم كانوا ينظرون الى الناس نظرتهم الى العبيد والخدم .

وما زلت اذكر كيف كان هذا التأليه ينعكس فى احاديث الناس ، فقد كنا نسمع الخدم والمزارعين والباعة يذكرون امامنا آباءنا واجدادنا بهذه اللهجة : رحم الله جدك ، ما كان ابهى طلعته ، وما اكرمه ، وما اعظم جاهه . كان عندما يمر فى المحلة ، ينهض الناس اجلالا له ، ويفتحون له الطريق الخ .

هكذا كانوا يحسبون سلام الباشا أو البك نعمة من الله . وفى وسط هذا المحيط نشأت . واني احمد الله انه يسر لجدي احضار مرب لي ، خلصني من ايدي الخدم الجهلاء . ذلك ان السلطان عبد

الحميد لما تولى الملك بعد خلع السلطان مراد ، طرد حاشية السلطان المخلوع ، فتفرق افرادها فى انحاء المملكة ينشدون عملا ، وجاء بعضهم الى دمشق ، فاستخدم جدي منهم مصطفى اغا رئيس طباخي السراي (اشجي باشي) والخصي خير الدين اغا (حرم اغاسي) . وقد اختار خير الدين مربيا لي ، فكان لا يفارقني لحظة ، ويسهر على تربيتي ، ويمنع الاهل والاصدقاء من مداعبتي بكلمات نابية .

***

الخدم والحشم : كان ذوات تلك الايام ، ومعظمهم من اصحاب المزارع الاغنياء ، يكثرون من اقتناء الخدم. فلكل ذات فى داره «وكيل خرج» يشرف على مصروف الدار ، وكاتب للمحاسبة ، وقهوجي ، وجوذي وندل (سفرجي) وسائس . وكانت بيوت «الاكابر» تعج بالخدم من سود وبيض ، خاصة بالمماليك المنتمين الى الشركس والكرج . وكانوا يقتنون ايضا الجواري على اختلاف الوانهن ، ويستولدون الاماء . ومنهم من كان يعترف بولده ، ومنهم من يحرمه اكراما لزوجاته واولاده .

وكان جميع الخدم تقريبا اميين جهلة ، خصوصا ان الذوات كانوا يبحثون عن ارخص الخدم اجرا ، ليوفروا بعض دريهمات فى الشهر . على ان بعضهم كانوا يحسنون معاملة الخدم ، فيستبقونهم فى بيوتهم حيث يتزوجون ويصبحون كأفراد العائلة .

ومما يؤسف له ان تربية الاولاد كانت فى ايدي الخدم الجهلة ، وما تزال كذلك الى اليوم . وانه لمن المؤلم ان حكوماتنا العربية لم تعر هذا الموضوع الاهمية المناسبة حتى الان ، فلم تفتح مدارس لاعداد مربيات الاطفال والخدم .

***

الخجا نفوس(١) : كان فى دمشق نساء يعلمن القرآن

---

(١) الخجا كلمة اصطلحوا على اطلاقها على المرأة التي تعلم الاطفال مبادىء القراءة . وهي مستقاة من كلمة « خواجة » التركية ، ومعناها المعلم .

الكريم دون سواه ، فارسلتني والدتي الى دار احداهن «الخجا نفوس» ، في محلة التعديل في القنوات .

كانت دارها صغيرة ، فيها غرفة متسعة ، يجلس فيها الاولاد. منهم من يأتي بطراحة ، ومنهم من يأتي بجلد شاة . ولا يزيد عمر اكبرهم عن السابعة . يجلسون من الصباح الى المساء في هذه الغرفة الرطبة . واذا تكلم احدهم او لعب اكل «الفلقة» . وكانت الخجا نفوس كسيحة ، لديها عصي كثيرة مختلفة الطول لضرب الاطفال ، فلا يفوتها طفل قريب او بعيد .

وكانت كبيرات البنات يقمن بخدمة الدار من كنس وشطف وجلي . اما الصبيان فمنهم من يشري حوائج الخجا ، ومنهم من ترسله لجلب «الزوادات» من دور اولاد الاغنياء . اما انا فنظرا لرشاقتي وخفتي ونباهتي — على رأيها — فقد سلمتني معالجة بعض مشاكل الاولاد .

وكان من تلامذة الخجا المرحوم منير الدلاتي (ابو عصام) . وكان لا يحسن اخراج الحروف صحيحة لصغره ، فاقرأته الخجا يوما حرف الذال ، فلفظه كالزاي ، ولما كررت له الحرف ولم يضبطه، غضبت واحضرت خيطا رفيعا من «المصيص» وعقدت به لسانه عقابا له . ولم يمض عشر دقائق حتى ضب اللسان على الخيط وتورم ، وازرق وجه الطفل . ولما رأت اخته «افاكت» ذلك ركضت عائدة الى بيتها ، فرأت والدها المرحوم محمد الدلاتي امام الباب فاخبرته بما جرى ، فاسرع مع جاره علي الساطي الطبيب الشهير ، الى دار الخجا .

وحاول الساطي قطع الخيط ، فلم يتمكن من ادخال مقصه الرفيع ، لان اللسان كان قد غطى الخيط . وكانت حالة الطفل تزداد سوءا ، وقد جحظت عيناه وكادت روحه تزهق ، لولا ان الله وفق ، وتمكن الساطي من ادخال ميل رفيع بين اللحم والخيط ، فرفع طرفا من الخيط وقطعه بالمقص، فنجا الطفل .

وعلى الاثر شتم الوالد الخجا شتما قبيحا وانبها تأنيبا عنيفا واخذ ولديه وذهب بهما . ولم يعودا بعد ذلك الى الخجا .

وكنت امازح منيرا بعد ان كبر ، ودخلنا المدرسة الاعدادية . وكان طويل اللسان ، فاقول له : «ليت الخجا قطعت لسانك يا مفزور !» ، فيغرق فى الضحك !

***

«الختمة» : من المعلوم ان اولاد المسلمين كانوا يحتفلون باكمال قراءة القرآن الكريم فى الكتاب أو الخجا بختمة. وكان للختمة احتفال خاص . وهكذا اقاموا لي مهرجانا يوم ختمت القرآن ، فخرج الطلاب جميعا من دار الخجا نفوس الى دارنا فى موكب مشى فيه الطلاب بصف مزدوج ، ينشدون الاناشيد المدرسية . وكان عمري ست سنوات آنذاك . ومن الاناشيد التي انشدوها :

سلامٌ سلامٌ سلامٌ سلامْ
سلامٌ عليكمْ كثير السلامْ

ومنها : بلبل الاقبال غرد وبشير السعد قال
ظهر الهادى محمد شمس افلاك الكمال

ولما وصل الموكب الى دارنا وقف والدي وجدي لامي ، وجمع غفير من اخوال والدي ووالدتي مع بعض اصدقاء والدي فى باحة دارنا «البراني» الخارجية الخاصة بالرجال ، وتناول احدهم المقرا ــ ويسمونه كرسي المصحف ــ من على راس حامله ، فوضعه على حافة حوض الماء (البحرة) ، والمصحف فوق الكرسي ، ووقفت امامه وانا مرتد ثيابا مزركشة بالفضة صنعت خصيصا ليوم الختمة ، وعلى راسي طربوش زينوه بالماس واللؤلؤ . ثم رفع الطربوش وكيل خرج دائرتنا امين اغا ابو كامل ، وابدله بطربوش جديد بدون حلى، وبدات قراءة الفاتحة ثم قرات من اول سورة البقرة ، حتى وصلت الى الاية الكريمة : «والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك

وبالاخرةهم يوقنون. اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون. ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى ابصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم»

ولما وصلت الى هنا ، خطف اكبر الاولاد طربوشي وركض بـه الى والدي واعطاه اياه مباركا له بالختمة . فأعطاه والدي دينـارا ذهبا «حلوانا» له مع الطربوش ، وفرق على كل من الاولاد ريـالا مجيديـا .

* * *

الختان : ما تزال حفلات الختان التي تقام اليوم في احيـاء دمشق النائية ، كما كانت قبل خمسين سنة : يقام الاحتفال في دار صاحب الختان ، ويحضره تلامذة الخجا او الكتاب الذي يتعلـم فيه المختون ، كما يجري في مهرجان الختمة .

بمناسبة ختاني اقاموا لي مهرجانا فخما ، وزين اهلي راسي بالماس والجواهر ، واركبوني حصانا سارت امامه صفوف الطلاب بالاناشيد السابقة (سلام سلام سلام) ، فطاف الموكب سوق الحميدية وسوق الطويل ، ثم عدنا الى دارنا .

وبعد ان اكل المدعوون ورفقائي وتلامذة الخجا الحلويـات ادخلوني الى غرفة خاصة ، فامسكني رجل قوي العضلات ، بينما اجرى لي الجراح علي الساطي عملية الختان . وكانت العـادة ان يجريها المزين (الحلاق) لا الطبيب . وما زلت اذكر ان جرحي لـم يشف بسهولة ، فتعذبت ثلاثة اشهر . وقد وعدت والدتي ان تقيم لي «سيرانا» كبيرا عند شفائي وبرت بوعدها .

الكتاب : الكتاب هو شبه مدرسة اهلية ، يتعلم فيها الصغـار مبادىء القراءة والكتابة والحساب عند شيخ يتناول اجره اسبوعيا. وكانت الاجرة تسمى «خميسية» لان الاولاد كانوا يأتون بالمرتـب يوم الخميس ، وكان يتراوح بين القرش والبشلك في الاسبـوع .

وكثيرا ما كان الوالد ينقل الولد من كتاب الى كتاب ،ليقتصد نصف قرش. وكان الاغنياءيعطون المعلم زيادة عن الخميسيةرغيفامن الخبز.

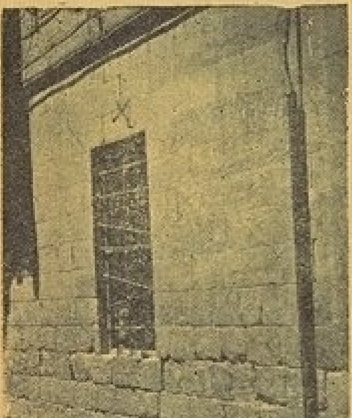
والكتاب عبارة عن غرفة رطبة يجلس الاولاد فيها على الارض فوق الحصير ، وامام كل طفل صندوق صغير يضع فيه صبرته(١) وادواته . وكان اكثر الشيوخ من اشباه المتعلمين ، ممن اغلقت فى وجوهم ابواب الرزق ، فتسلطوا على هذه الصنعة للارتزاق .

والواقع ان الكتاتيب كانت زرائب لحبس الاطفال فى النهار ، حتى ترتاح امهاتهم منهم . وكان الشيخ يستخدم الاطفال كما يريد، فمنهم من يكنس ، ومنهم من يشطف ، ومنهم من يقوم بخدمة ساقي الشاي للشيخ وضيوفه .

***

انا فى الكتاب ــ بعد الختمة والختان ، ارسلني اهلي الى كتاب « الشابكلية » فى محلة القنوات . وقد وقع الاختيار عليه لانه قريب من دارنا، فلايبعد عنها أكثر من ستين مترا .

كان الكتاب عبارة عن غرفة عفنة،اشبه بالسجن منه بالمدرسة وكان شيخه الشيخ عثمان المصري طاعنا فى السن ، يتجاوز عمره الثمانين . وكنت اجلس الى جانب النافذة ، اتطلع منها الى الى الخارج، ولاافهم كلمة مما اسمع .



نافذة كتاب « الشابكلية » التي كان فخري يجلس الى جانبها

---

(١) الصبرة هي اسم الرسالة التي كان يقرأ فيها الغلام مبادىء القراءة وما تزال تدعى بهذا الاسم فى المدارس الصغيرة .

هكذا لم اتعلم عند الشيخ عثمان كلمةواحدة تزيد عما قراته عند الخجا نفوس . فنقلني والدي الى كتّاب «القبة» ، عند مدخل الدرويشية في القنوات . وكان شيخه فظا قاسيا ، ومع ذلك تعلمت عنده شيئا من مبادىء الكتابة والحساب .

وبعد بضعة اشهر استعار والي سوريا ناظم باشا دارنا في القنوات ، وتعهد بان يسلمنا اياها بعد بضعة أشهر ريثما يجد دارامناسبة له . وعلى الاثر انتقلت عائلتي الى بلدة «دوما» حيث تملك دارا واسعة . وبدلا من ان يعيد الينا الوالي دارنا في دمشق في بضعة اشهر ، ظل فيها سبع سنوات. . .

اما انا فقد نقلني والدي مع العائلة من كتاب دمشق ، الى كتاب الشيخ عرابي في دوما، وهو واقع في داخل جامع «ابي الرهج» . وكان الشيخ عرابي شرسا ، لا يعرف وجهه الضحك ، وكانت غرفة الكتاب لا ترى الشمس ابدا ، فساءت حالتي الصحية من التردد عليه ، وعندئذ نقلني والدي الى كتاب الشيخ احمد مجيد في جامع الريس ، في الحارة الشرقية . وكان هذا الشيخ حسن الخط والخلق فعلمني في مدة قصيرة الحساب والقراءة والخط ، ثم ادخلني في طريقته ، وهي الطريقة الرشيدية . وكان هو شيخ هذه الطريقة في دوما . وهي احدى الطرق الصوفية .

وبقيت في هذا الكتاب الى ان تركنا دوما وعدت مع اسرتي الى دمشق ، حيث استأجر والدي دارا في السنجقدار لان الوالي لم يشأ ان يترك دارنا في دمشق . وعندئذ دخلت المدرسة العازرية مما سيرد تفصيله .

* * *

ثلاث أواق لحمة : عندما كنت في دوما ، وقعت لي حادثة لا بأس من سردها ، لتصوير جانب من حياة ذلك المحيط . ففي ذلك الحين (السنة ١٣١٣ هجرية) قدم من مصر الى دمشق الشيخ محمد الدندراوي ، شيخ مشايخ الطريقة الرشيدية . ثم جاء الى دوما

لزيارتها ، وحل في بيت آل الريس ، حيث اقيم له استقبال عظيم وما زلت اذكر كيف انه مد رجله امام جميع الناس ، ولم ينهض لاحد من زائريه ، حتى ولا للقائمقام .

وفى المساء ، بعد الطعام ، اقيمت حفلة «ذكر» ،ثم راح الناس يقبلون يده ، ويمرون بها على وجوههم ورؤوسهم . ولما وصلني الدور ، قبلت يده. وكنت يومئذ فى السابعة من عمري ، فقدمني اليه الشيخ احمد مجيد ، وعرفني بانني «النجل الوحيد للحسيب النسيب ، الوجيه النبيه» الى اخر المعزوفة المعروفة . فدعا لي الشيخ بالتوفيق والفتح .

وهنا عصفت بي النخوة ، فدعوت الشيخ الى «سيران» غدا فى «المزرعة» ، وهي دوحة غنية بالمياه والاشجار ، فقبل دعوتي وهو يقول : بارك الله ! بارك الله !

بعد انتهاء الحفلة نصف الليل ، عدت الى البيت ، فايقظت والدتي ، وطلبت اليها ان تعطيني المطمورة(١) التى اجمع فيها خرجيتي ، حتى اشتري ثلاث اواق لحما ، نعمل بها «صفيحة» للشيخ الدندراوي فى المزرعة !

وما ان سمعت والدتي الخبر وادركت انني دعوت فعلا الشيخ الكبير الى «سيران» حتى طار صوابها ، فايقظت والدي وابلغته الحكاية ، فما كان منه الا ان ارتدى ملابسه ، واستدعى الخدم ، واوفد الرسل الى املاكه فى قرى الجرباء والريحان والعبارة لاستقدام الذبائح ، كما ارسل اخرين الى المزرعة لاعداد المكان للسيران . وعند الصباح توافدت علينا الخيول والبغال والحمير لتنقل الضيوف ، وارسل والدي عربته الخاصة لنقل الشيخ الدندراوي ، فكانت حفلة عامرة بكل معنى الكلمة .

عدنا فى المساء الى البيت منهوكي القوى ، وانا افكر فى الدعوة

---

(١) المطمورة هي علبة من الفخار ، ذات شق لادخال الدراهم فيها . وبعضهم يسميها « المكمورة » .

التى كنت اظن ـ على صغر سني ـ ان ثلاث اواق من اللحمة تكفي لها . وفى الصباح التالي استدعاني والدي ، فادركت ما ينتظرني فهربت الى الحوش واختبأت فى زريبة البقر ، ورفضت الذهـاب اليه . وعندئذ جاء بنفسه يناديني من خارج «البايكة» ، فلم اجد بدا من الخروج ، ووقفت امامه مطرقا ، واذا به يقول : ايــه.. هل انبسطت امس يا حبيبي ؟

فلم اجبه ، فقال : لا تخف ! تقدم !

وتقدمت منه ، واذا به يصفعني صفعة على وجهي ، كادت تخلع راسي ، ففررت من امامه وهو يقول : سود الله وجهك .. كنت تريد ان تسود وجهي بدعوتك ... خذ هذا الدرس عبرة لـك فى المستقبـل !

هذه الصفعة كانت اقوى صفعة «اكلتها» من والدي فى حياتي، وكانت سبب انصرافى عن الطريقة الرشيدية ، بل عن جميع الطرق. وبعد مدة قليلة عادت اسرتنا من دوما الى دمشق ، وانطوت بذلك تلك الصفحة فى حيــاتي .

من مدرسة الى مدرسة

فى المدرسة العازرية : بعد عودتنا من دوما الى دمشق ، ارسلني والدي الى المدرسة العازرية ، تلميذا داخليا ، لكي اتعلم اللغة الفرنسية ، وذلك سنة ١٨٩٧ – ١٨٩٨ ، وقد شعرت حالا بالفرق الكبير بينها وبين الكتاتيب التى تعاقبت عليها ، فهذا معهد علمي بكل معنى الكلمة ، لا زرائب للاطفال . والحمد لله على ان وزارات المعارف حاربت تلك الكتاتيب ، وقيدت فتح المدارس الاهلية بشروط علمية وصحية .

ولا اذكر سوى اليسير عن ايامي فى تلك المدرسة . ومن ذلك حادث وقع مع ابن خال والدي فوزي البكري . كان فوزي فى الصف الرابع ، وانا فى الصف الاول . وفى يوم عطلة فى الصيف ، ذهبنا معا الى القابون ، حيث زرنا والده فوزي باشا البكري . ولما سألني الباشا عن حالة المدرسة ، قلت له انها حسنة ، لولا ان عدد «المشمشات» التى يقدمونها الينا بعد الطعام قليل جداً .



فخري فى المدرسة العازرية سنة ١٨٩٨ ميلادية

وفى اليوم التالي اوصلنا الباشا الى المدرسة ، وقابل رئيسها وقال له : ان الاولاد يشكون من قلة الفواكه ، فاذا كنتم لا تقدرون على اشباعهم فاننا نستطيع ان نرسل اليهم المشمش الكافي كل يوم !

فاستحيى الرئيس ووعد باجراء اللازم . وكانت غرفة الطعام كبيرة ، يأكل فيها الطلاب جميعا باشراف احد الرهبان . وبينما كنا نتناول طعام الغداء ، دخل علينا الرئيس ووراءه عدد

من الاساتذة ، وخلفه خادم يحمل طبقا كبيرا مليئا بالمشمش . فوقفنا جميعا احتراما له ، واذا بالرئيس ينادي بصوت عال : مسيو بكري .. اين هو مسيو بكري ؟

فاجاب فوزي : بريزان.. (يعني حاضر)

فتناول الرئيس الطبق من الخادم ، وقدمه الى فوزي قائلا بلهجة كلها سخرية : «تفضل اشبع مشمش» !

وارتبك فوزي ، واجاب : انا لم اطلب فواكه .. ولكن الذي طلبها فخري البارودي !

وكنت اجلس فى زاوية اخرى من القاعة مع صغار الاطفال، فتقدم نحوي الرئيس وقال بلغة عربية محطمة : انتي ما فى شبع مشمش ؟

فاجبته : نعم .. ما فى شبع !

فاعطاني الطبق ، فتناولته بكل بساطة قائلا : مرسي‌مون‌بير..

وهكذا وضعت الطبق امامي ، ورحت أفرق منه على رفاقي دون اي خجل ، بعكس فوزي الذي لم يعد يجرأ على النظر الى الرئيس من شدة خجله !

★ ★ ★

على الرغم من «شيطنتي» ، ومن ان «السينيال» لم يفارقني يوما واحدا اثناء وجودي فى المدرسة ، فقد تعلمت الفرنسية ، واصبحت اتكلمها بشيء من السهولة . وما يزال لدي دفتر من دفاتر تلك المدرسة ، فيه تاريخ دخولي اليها ، وخروجي منها ، وقد كتبت عليه الادارة الملاحظة التالية عني : «دائما معاقب عقابا خفيفا .»

اديت الفحص للانتقال الى الصف الثاني فى السنة الثانية (١٨٩٨ ـ ٩٩) ، ولكن والدي لم يلبث حتى نقلني الى مدرسة

اخرى . ولا ادري السبب حتى الان ، ولكنني بقيت اتأسف على انتقالي ، لان ذلك صرفني عن اتقان اللغة الفرنسية ، وقد احتجت اليها كثيرا عند دخولي معترك السياسة ، خاصة في العهدالفرنسي.

***

المدرسـة الريحانيـة : نقلني والدي من العازرية الـى مدرسة «الريحانية» ، وهي مدرسة اهلية اسسها الشيخ محمد المبارك (جد الشيخ محمد المبارك النائب الحالي) وخلفه فيها الشيخ عبد الجليل الدره . وقد جمعت نخبة صالحة من ابناء دمشق.

كانت المدرسة تتألف من ثلاثة صفوف ، ثم اسسوا فيهـا صفا رابعا سموه «صف مخصوص» لكبار الطلاب ، تعطى فيـه الدروس الادبية زيادة عن دروس الصف الثالث ، ويستظهر طلبته قصائد شعرية ، اذكر منها «لامية العجم» و«لامية العرب» ، وغير ذلك . وعلى الرغم من صغر سني ادخلوني الى هـذا الصف . وكانت الاجرة فيه ريالا مجيديا في الشهر .

كان اساتذة المدرسة يسمحون لطلاب «الصف المخصوص» بحضور اجتماعاتهم الخاصة ، وحلقات السمر التى يعقدونهـا ، فتدور فيها المذاكرات الادبية والاناشيد . ولما كان شرب الشاي نقطة الدائرة في هذه الاجتماعات ، فقد كان أكثر الاناشيد عنه . واذكر منها :

يـا مدير الشاي هيـا	واسقنا كاس الحميـا
ان تكـن راضي عليـا	...(نسيت البـاقي)

ومنهـا ايضـا :

يا حسن شاي لاح في بلوره	يزهو كتبر في لجين رائق
اداره الساقي على الندمان في	زينة معشوق ولون العاشق

وبين الطلبة الذين اجيز لهم حضور جلسات الاساتذة ، السادة لطفي الحفار ، عزت حباب ، خليل ملص ، شكري العجـلاني

اما انا ، فرغما عن كوني من تلامذة الصف ، فانهم لم يسمحوا لي بالحضور نظرا لصغر سني ، وتعويضا على ذلك «انتدبوني» مع ممدوح العابد لكي نهيىء لهم الشاي ، على ان نبقى خارجا . فكنا نغلي الماء فى «السماور» ، ونخمره فى «البراد» ونصبه فى الكؤوس ، وعندئذ ندق عليهم الباب ، فيخرج الينا الساقي صاحب النوبة فى ذلك اليوم ، ويستلمه منا مع العدة . وكانت العدة مؤلفةمن السماور والبراد وعلبة الشاي والسكر واكياس الفحم وطاسة غسيل الكؤوس والملاعق الصغيرة ، والكل



الشيخ محمد المبارك
مؤسس المدرسة الريحانية

موضوع فى صندوق خاص ذي بيوت عديدة . وكان الصندوق رفيق الشيوخ والمعلمين فى «السيران» يوم العطلة الاسبوعية .

وبفضل انتدابي لهذه «المهمة» ، اتيح لي عن غير قصد ، ان اتعرف الى محلة «زقاق المحكمة» التى تقوم فيها المدرسة الريحانية وان ادخل بيوتها . ذلك ان الثقاب (الكبريت) كان مجهولا فىتلك الايام . وكان الناس يحتفظون فى بيوتهم بجمرة كبيرة الحجم ، مطمورة فى «المنقل» ، فتبقى ٢٤ ساعة قبل ان تصبح رمادا . وكلما احتاج اصحاب الدار الى «ولعة» ، اقتطعوا من الجمرةقبسا لاشعال النار .

وجرت العادة ان يقترض الجار منجاره قبسا او قطعة من

الجمر . فلما عينوني محضرا للشاي ، اضطررت ان اذهب كل مرة الى البيوت المجاورة ، «اشحذ» منها قبسا لاشعال «السماور» ، وهكذا طرقت مع الزمن ابواب جميع بيوت الحي ، وتعرفت الى اهلها . وما يزال ببالي اسماء بعض تلك الاسر ، منها ال الصبان ، وال مراد ، وال الحديدي ، وسواهم . وكثيرا ما كنت في ساعة الحشرة استعير الجمرات من اربعة او خمسة بيوت في آن واحد ، على سبيل الاحتياط ، فاذا انطفأت «ولعة» تكون الاخرى جاهزة !

ومر على طلاب «الصف المخصوص» زمن طغت فيه عليهم «موضة» التعمم بعمة بيضاء . ومن بين الذين تعمموا السادة لطفي الحفار ، خليل ملص ونسيب البكري . واراد الاخير اقناعي بالتعمم ، فلم يفلح . وقد ظل هو متعمما مدة سنة ونصف . وقبل ان ينتقل من المدرسة الريحانية ، الى المدرسة الاعدادية (اي مكتب عنبر) خلع العمامة ، كما خلعها لطفي الحفار . اما خليل ملص فقد «ملص» منها بعد ان اعتمر بها ببضعة ايام . وهكذا تبددت موجة التعمم في تيار العصر الجديد .



السيد نسيب البكري بالعمامة البيضاء في عهد المدرسة الريحانية

المدرسة الياغوشية : كان ابناء «الذوات» فى ذلك الزمن يأنفون دخول المدارس الحكومية ، واذا دخلوها بالغوا فى الصلف والتمرد . وما اقل الذين نجحوا منهم فيها فى تلك الايام .

فى ذلك الحين عين والدي السيد علي السقا اميني ، رئيس كتاب مديرية المعارف ، وليا لامري ، فاقنع والدي بنقلي من المدرسة الريحانية الى «مكتب الياغوشية». وكان الاتراك يطلقون اسم مكتب على المدارس الحكومية . وكان فى دمشق يومئذ ١٣ مدرسة



المدرسة الياغوشية كما تبدو اليوم ، وقد اصبحت الان مأوى للاجئين من فلسطين

حكومية للذكور ، ومنها المدرسة الياغوشية المشار اليها ، الواقعة بين محلة الخضيرية والشاغور ، وفيها خمسة صفوف .

اختارت مديرية المعارف لادارة هذه المدرسة ، الشيخ ابو الخير المنير . ورغم عمته البيضاء وانتسابه الى طبقة الشيوخ المعلمين ، فقد كان فتى قويا ، وقد وقع الاختيار عليه لرجولته وشجاعته ، لان المدرسة واقعة بين حيي الشاغور والميدان ، اللذين اشتهر سكانهما بالمرجلة «والقبضايات» .

وكان الحيان فى حالة حرب دائمة ، تقع بينهما المعارك بصورة مستمرة . وأذا ذكر الشاغوري او الميداني امام اهل الاحياء الاخرى من دمشق ، قالوا عنه : «دعنا منه ، فان هذا اصبعه ثخينة» . ويقصدون بذلك انه صعب المراس ، قاسى القلب .

وكان من الطبيعي ان تمتد الخصومة بين الحيين الى طلاب المدرسة ، فعند خروجهم فى المساء منها ، كان الشجار يبدأ بين الطلاب الشاغوريين والطلاب الميدانيين . ولو لم يكن مدير المدرسة الشيخ المنير قوي الشكيمة صنديدا ، يملأ قلوب الطلبة رهبة وخوفا ، لدار القتال كل يوم داخل المدرسة من الصباح الى المساء !

ولم يكن الشجار مقصورا على ابناء المدرسة الياغوشية فيما بينهم ، بل كثيرا ما كنا نتشاجر مع ابناء الكتاتيب الاهلية ، فيتدخل رجال الشرطة لتفريقنا . ولا بد من الملاحظة بان ابناء المدرسة – على اختلاف احيائهم واحزابهم – كانوا يقفون صفا واحدا فى وجه الطلاب الغرباء و ضد «زعران» الحارات . وكانت محافظ الجلد التى نضع فيها الكتب ونحملها على ظهورنا ، دروعنا الواقية فى المعارك !

***

«اسلحة» الطلبة : ما دمنا نتحدث عن مشاجرات الطلاب ، فلا بأس من ذكر «الاسلحة» التى كنا نستعملها فى ذلك الحين ، وهي النقيرة ، والمداحة ، والمقلاع ، والنقفيه ، والشبرية والبونية .

النقيرة قطعة من غصن غليظ ، مقطوع من شجرة «الدردار» او اللوز ، طولها من شبر الى شبر ونصف ، راسها مبري حاد كراس المسمار .

المداحة قطعة من قماش صوف ، بيضوية الشكل ، موثوقـة الى حبلين من الجانبين ، يلفها التلميذ حول خصره تحت زنـــاره. وعندما يشتبك بشجار ، يخرجها ، ويضع فيها الحجارة ، ويقذفها بها الى مسافات بعيـــدة .

المقلاع ، ويسميه بعضهم «ألصبان» ، هو اكبر من المداحـة، فاذا كان حجر المداحة بحجم اللوزة ، فان حجر المقلاع بحجم الجوزة الكبيرة ، وقد يكون احيانا بحجم الرمانة .

النقفيه ، ويقال لها «العقفات» ، هي شعاب من اغصـــان الشجر ، تشد اليها خيوط من المطاط ، في وسطها جلدة توضـع فيها الحصوة ، فتقذفها بعيدا . وكنا نستعملها لصيد العصافير.

الشبرية خنجر صغير ، اما البونية فهي قطعة من حديـــد او نحاس ، فيها اربعة ثقوب تدخل بالاصابع ، ولها انصال مسننة، وهي خطرة جـــدا .

بعد وصف هــــذه «الاسلحة» لا ننسى ذكر الامواس على اختلافها ، ومنها ذات الكباس ، وكذلك العصي والقضبان والحجارة والطوب ، وكل ما تقع عليه الايدي في الازقة ، وفي ساحة «الكونة».

***

الكلاوي ومعلم التركيـة : قلت ان مدير الياغوشية الشيخ المنير كان مرهوب الجانب لقوته وشجاعته ، لذلك استهابه الطلاب. ولكنهم ما كانوا ليترددوا في الاعتداء على المعلم الضعيف . وانني اضرب مثلا على ذلك الحادثة التاليـة :

كان في مدرسة «القماحين» معلم للغة التركية ، وكان قاسيا على الطلبة ، لا يغفر لهم اي ذنب ، ويجازي كل قصور بالضرب او بالفلـق .

وكان بين الطلاب تلميذ «مدلل» عند اهله ، يسمى محمـد

حسن راجحه ، من سكان باب الجابية ، له خال معدود بين كبار «القبضايات» ، يلقب بالكلاوي ، وكان الكلاوي يحب ابن اختـه محمد حسن حبا زائدا ، حتى سماه باسم عائلته ، وكناه من صغره بابي حسن .

هذا الغلام عصى مرة على معلم التركية ، وابى ان يحفظ الدرس فهدده المعلم بالفلق اذا داوم على التمرد ، فخرج الغلام يبكي وذهب يشكوه الى خاله الكلاوي ، فما كان من هذا الا ان اخرج من جيبه مسدسا من نوع «النيكل» واعطاه اياه ، وامره ان يذهب ويطلق الرصاص على المعلم !

وعاد الغلام بالفعل ، ووجد المعلم فى المكتب ، فاخرج المسدس واطلق عليه رصاصتين شردتا عنه ، فسارع بعض الاولاد وحالوا بين محمد حسن وبين المعلم .

وما يزال هذا المعلم الى اليوم فى قيد الحياة ، وهو السيد محمود الصباغ مدير البنك الزراعي السابق . وقدرويت هذه الحادثة للتدليل على العقلية التى كانت تسود مدارسنا فى نهاية القرن التاسع عشر .

* * *

الفحص والشهادة : فى اخر العام المدرسي (سنة ١٣١٦ ـ ١٣١٧) انهينا دروسنا وادينا الفحص امام مميزين انتدبتهم مديرية المعارف من موظفي الدولة فنجحت بحمد الله ، ونلت الشهادة الابتدائية من مدرسة الياغوشية بدرجة اعلى وبهذه الشهادة دخلت المدرسة الاعدادية المعروفة بمكتب عنبر .

سبع سنوات في الاعدادية

مكتب عنبر : كان مكتب عنبر المدرسة الملكية الاعدادية (اي التجهيزية) الوحيدة في دمشق يومئذ ، يتراوح عدد طلابها دائما بين الخمسمئة والخمسين والستماية . وكان الطلاب النهاريون يتعلمون مجانا ، والداخليون يدفعون اجرة مقابل النوم والطعام. والمدرسة ذات سبعة صفوف، ولها شهادتان، المتوسطة تعطى في انتهاء السنة الخامسة ، والاعدادية تعطى في انتهاء السنة السابعة وتدرس فيها العلوم الاتية : القرآن الكريم ، العلوم الدينية العقائد ، الفقه الشريف منه كتاب الصلاة ، كتاب الصوم ، كتاب الحج ، كتاب الزكاة ، كتاب النكاح .

وكانوا يدرسون في كل صف كتابا من هذه الكتب ، ثم علم



باب قاعة المكتبة في مكتب عنبر ، اي المدرسة الاعدادية

الاخلاق ، المنطق ، اللغة العربية (منها الصرف ، النحو ، ترجمة ، تطبيقات) اللغة التركية ، قواعد ، الكتابة الرسمية ، (الرسائل الديوانية) ، الادبيات العثمانية ، اللغة الفرنسية ، قواعد ، قراءة، املاء ، اللغة الفارسية (قواعد ، قراءة ، ادبيات) كتاب الكلستان، علم الثروة (الاقتصاد) ، علم احوال السماء (قوزموغرافيا) ، جغرافيا عامة ، جغرافية الولايات العثمانية ، تاريخ الدولة العثمانية، تاريخ العمومي ، حفظ الصحة ، خلاصة القوانين ، علم الاشياء ، علم الحساب : العملي والنظري ، الجبر ، الهندسة الخطية ، المجسمة، السطحية ، الرسمية ، المثلثات المستوية ، اصول الزراعة ، الرسم ، حسن الخط ، الكيمياء ، العضوية والمعدنية ، الفيزياء ، ويسمونها علم الحكمة او الماكينا (ميكانيك) اصول مسك الدفاتر (دوبيا) المواليد الثلاثة : المعادن طبقات الارض، النباتات، الحيوانات.

هكذا كانوا يدوخون رؤوس الطلبة بهذه العلوم . وكان مدير المدرسة تركيا ، واكثر معلميها من الاتراك ايضا يأتون بهم من الاناضول والروم ايلي ، والقليلون منهم من الاستانة ، حتى ان معلم العربية فى زمننا كان من الاتراك المعممين الملقبين بالسفطه ، واسمه اسماعيل حقي افندي . ولم يكن فى مكتب عنبر من ابناء العرب غير استاذان : محمد المرعشلي معلم القواعد والقراءة التركية والشيخ محيي الدين الخاني معلم الدينية وكلاهما من دمشق .

***

الـولي : كان مفروضا ان يكون لكل تلميذ ولي مسؤول عنه ، فاما ان يكون الوالد او الوصي اذا كان الغلام يتيما . ونظرا لبعد والدي عن دوائر الحكومة وكل امر الولاية علي الى صديقه علي السقا اميني ، رئيس كتاب دائرة المعارف فى دمشق .

وبدون ان يكلفني هذا الولي اي عناء ، استحصل على الاوراق الرسمية(١) التى تلزم لي كتلميذ ، وقدمها الى ادارة المدرسة ،

---

(١) شهادة النفوس الرسمية وتسمى ورقة نفوس ، الشهادة الصحية ، شهادة المدرسة الابتدائية .

فقبلتني فى الصف الاول ، وذلك فى السنة الدراسية ١٣١٧ ـ ١٣١٨ ماليـــــة .

* * *

رفاقي فى المدرسة : فرحت بدخول هذه المدرسة فرحا كبيرا ، لان تلميذ المدرسة الاعدادية ، كان يتمتع فى تلك الايام بمكانة عالية فى الاوساط العائلية ، نظرا لتفشي الجهل فيها وكان الشاب الذي يحرز الشهادة الاعدادية يعد من ارقى شباب ذلك الزمن ، وينظر اليه الناس نظرة اهل هذا الجيل الى حملة الدكتوراه !

واكثر كبار موظفي حكومتنا اليوم هم من خريجي مكتب عنبر، ومنهم فخامة الرئيس شكري القوتلي . واذكر من بين ذوي المهن الحرة السادة : سعيد محاسن ، سعيد الفزي ، سعيد حيدر ، والمرحومان فوزي الغزي ومظهر رسلان ، وصفي رسلان ، الدكتور صالح قنباز ، الاداري اسعد خورشيد ، الدكتور فؤاد الساطي ، وغيرهم من رجالات البلاد .

وكانت المدرسة الاعدادية تضم طلابا من جميع ابناء البلاد ، ولم تكن مقتصرة على الدمشقيين فقط ، وهكذا كان اكثر الداخليين، اذا لم اقل جميعهم ، من ابناء عواصم المتصرفيات(١) والاقضية .

وكان عدد طلبة الصف الاول يتراوح بين المائة والخمسين والمائتين ، فلا يتم التحصيل فيه ويحصل على الشهادة الا قسم قليل منهم ، وهكذا لم يزد عدد الذين كانوا ينالون شهادة مكتب عنبر ، عن عشرين تلميذا فى كل عام .

عرفت فى هذا المكتب رفاقا كثرا ، ذهب بعضهم فى ما بعد الى الاستانة ودخلوا مدارسها العالية كالطب، والحقوق، والهندسة والملكية ، والبيطرة ، ودار المعلمين وغير ذلك من المدارس .

---

(١) المتصرفية كانت تسمى عندالاتراك سنجق ، وهي ما يسمى اليوم محافظة

ومن الاخوان الذين رافقتهم فى صف واحد منذ الدخول حتى الصف الاخير السادة : سعيد محاسن ، حسن فرحات ، نسيب النابلسي ، عبد الرحمن رشيدات العجلوني . وكان محاسن وفرحات يتسابقان على الدرجة الاولى دائما ، ولا بد من ان يكون احدهما الاول والاخر الثاني . كذلك كان النابلسي والعجلوني يتسابقان على الدرجة الثالثة دائما ولا بد من ان يكون احدهما الثالث والاخر الرابع . اما انا فكنت من «عفاريت» المكتب ، ولم تكن درجتي متفوقة بل كانت دائما تحت درجة الاعلى ، ولم ارسب اية سنة .

***

اول بيت نظمته : كان من رفاقي فى الصف السيد توفيق الداودي ابن اخ الشيخ محمد الداودي ، المعروف بنظم الشعر . فكان توفيق يردد علينا احيانا قصائد عمه . وفى احد الايام ، ونحن فى الصف الرابع نستعد فى ساعة المذاكرة لدرس الهندسة ، قام توفيق الداودي يقرأ علينا قصيدة لعمه طويلة عريضة ، فشغل الطلاب وازعجهم . ورجاه البعض ان يكف عن القراءة فلم يفعل .



فخري فى المدرسة الاعدادية

وكانت القصيدة دالية فقمت الى اللوح (السبوره) وكتبت عليه هذا البيت ، وهو اول بيت نظمته فى حياتي ، على بحر القصيدة التى كان يقرأها :

توفيق ان العلك فى اشعاركم
وقف عليكم يا بني الداوودي!

فضحك الطلاب ، وقامت الضجة ، وغضب توفيق منه وخرج من الصف الى الملعب .

وفى اليوم الثاني جاء توفيق مبكرا وبيده قصيدة ادعى انه نظمها ، هذا مطلعها :

اخسأ بوجهك ايها البارودي واحذر اسودا درعها داوودي !

هجاني فى القصيدة هجاء قبيحا استفزني ، فتوعدته بالجواب فى الغد ، وذهبت الى البيت وانا مضطرب البال ، وقضيت الليل افكر حتى تمكنت من نظم ابيات كلت له فيها الصاع صاعين ، وذهبت فى الصبح مبكرا الى المكتب ، فلما اجتمع الطلاب قرات قصيدتي ، ومطلعها :

اخسأ بوجهك ايها الداوودي واحذر مدافع حشوها بارودي!

واستمر الهجاء بيننا ، فكان توفيق ينظم ابياته فيصلحها له عمه الشيخ محمد ، وانظم انا ابياتي واعطيها الى الشيخ عبد القادر بدران ، فيصلحها ، وبقينا مدة سنتين ونحن نتهاجى ، ولكننا مع ذلك بقينا اصدقاء نقضي اوقاتنا سوية داخل المدرسة وخارجها . ولما كثرت قصائد الهجاء بيننا ، عقدنا صلحا واتفقنا على ان نتلف جميع ما كتبناه نحن الاثنين واقسمنا الايمان على ذلك . وهكذا حرقت جميع القصائد التى قلتها فيه ، وقال انه حرق قصائده .

ومنذ ذلك الحين اصبح لي بعض الميل الى نظم الشعر . وقد ساعدني على ذلك الشيخ عبد القادر بدران ، احد علماء قصبة دوما الفقهاء على المذهب الحنبلي ، وهو من العلماء المجددين . وكان لسانه سليطا جريئا لا يهاب احدا . فوقعت مرة مشادة بينه وبين رئيس بلدية دوما صالح طه ، وتبادلا الهجاء . وعلى الاثر استصدر طه من الوالي امرا بابعاد الشيخ بدران عن دوما ، فانتقل الى دمشق وحل ضيفا علينا فى بيتنا ، مدة سنتين ونصف ، حتى انتهت مدة نفيه .

كنت يومئذ طالبا فى المدرسة الاعدادية ، فافادني وجوده فى

دارنا اذ ساعدني على تعلم اللغة العربية ، وكان له فضل كبير بتوجيهي وارشادي الى كتب اللغة ومطالعة كتب الادب ودواوين الشعر . وقد قرأت عليه مقامات الحريري باجمعها ، فكان لها تأثير فى توجيهي نحو الادب العربي ، خلافا لرفقائي الذين اتجهوا نحو الاداب التركية .

***

ممدوح العابد : كان من رفقائي فى هذه المدرسة ابن عمتي ممدوح بن رضا العابد . التقينا اولا فى الصف الثاني ، ثم بقينا حتى نلنا الشهادة معا . وكان رحمه الله من اخف خلق الله روحا ، وله حوادث كثيرة ، من اغربها اننا صحونا صباح احد ايام الشتاء على ضرب (البوري) . وكنت فى القسم الداخلي ، فما كاد الطلاب يستيقظون حتى وقع لغط ، وارتفعت الاصوات من كل جانب ، وتبين لنا ان احد الطلاب قام اثناء الليل ، وخطط بالحبر الاسود وجوه المبصرين(١) تلك الليلة ، كما انه دهن وجوه كبار الطلاب فبدا وجه كل طالب كوجه مهرج المسارح ، له شنبات وحواجب عجيبة !

ونظرا لكثرة عدد الوجوه «المسخمة» ، تعالى الضجيج ، حتى بلغ غرفة المدير المعاون رشيد حكمت ، وكان من اشد المعلمين بطشا ، فجاء مسرعا ليستجلي الخبر ، فلما رأى هذا المشهد لم يتمالك نفسه من الضحك ، وسارع بعض الطلاب نحو ممدوح العابد يتهمونه بهذا العمل !

وكان ممدوح ينام فى غرفة صغيرة فى اخر المهاجع ، مع ثلاثة طلاب ، فوجدوه غارقا فى النوم ، ووجهه هو الاخر مسخم مثل وجوههم فايقظوه واتهموه بما جرى ، فانكر وصاح بهم صياحا شديدا .

---

(١) المبصر هو المناظر الذي يراقب الطلاب فى النهار والليل ويسمونه اليوم معيدا

ثم نهض ممدوح ، وذهب نحو المدير المعاون واسر فى اذنه شيئا، فوافقه المعاون عليه . وهكذا نزل المعاون والمبصران وبعض الطلاب الكبار المدهونة وجوههم ووقفوا امام باب المهجع السفلي من



الباحة الداخلية فى المدرسة الاعدادية، ويبدو فيها قسم من المهجع

الخارج ، ودعوا الطلاب الى نزول السلم واحدا واحدا ، وكلما مر واحد فحصوا اصابعه ، حتى جاء احد الطلاب الحوارنة ، ويسمى محمود الحوراني ، فوجدوا حبرا على سبابته ، فصاح ممدوح : هذا هو الفاعل !

واخذوا المسكين الى غرفة المعلمين ، وانهالوا عليه ضربا ، وآجر فيه كل من اصابه رشاش تلك الليلة ، حتى كاد يهلك .

وبعد بضعة ايام تبين ان الفاعل هو ممدوح العابد وانه بعد ان «سخم» وجوه الجماعة «سخم» وجهه ايضا ، ودهن اصبع الحوراني المسكين ، ثم اقترح على المعاون ان يعاين اصابع الطلاب، فانطلت الحيلة على المعاون وعلى الطلاب .

ولما عرف الجميع ان الفاعل هو ممدوح ، احضروه الى غرفة

المعلمين ، وشكلوا محكمة من الاساتذة حققت معه فاعترف بجرمه، وقال انه سخن زجاجة الحبر على المدفأة ، حتى لا يصحو احد عند دهن وجهه بحبر بارد. وعندئذ اطعموه «علقة ماكنة» وكدروه علنا امام جميع الطلاب !

* * *

قضاء افندم ! : وهذه حادثة طريفة وقعت لنسيب البكري عندما كان فى أول صف فى المدرسة الاعدادية :

مر بجانبه تلميذ فلاح مجتهد ، فصفعه نسيب صفعة اطارت صوابه ، فراح يشكو امره الى الادارة . فاستدعى المدير نسيب البكري وسأله لماذا ضرب الغلام ، فاجاب : ضربته قضاء أفندم !

وبعد بضعة ايام بينما كان الطلاب بالفرصة ، دوى البوق يدعو الطلاب الى الاجتماع . وكان نسيب البكري وفهمي الحسيبي يسيران جنبا الى جنب لما سمعا البوق ، فقال فهمي : ربما يريدون ان يجمعونا لمجازاة أحد الطلاب !

فقال نسيب : ان شاء الله تكون المجازاة لك يا فهمي !

فاجابه فهمي : بل ان شاء الله تكون لك انت يا نسيب !

.. واستجاب الله دعاء فهمي ، اذ تقدم المدير الثاني نظاميات افندي الى منتصف المربع الذي شكله الطلاب ، وخطب خطابا طويلا باللغة التركية حمل فيه على المعتدين ، ثم اعلن ان السيد البكري اعتدى على الطالب فلان ، وصفعه صفعة قوية بلا سبب ، وكانت صفعته «قضاء افندم» ، لذلك ارتأت الادارة ان تكدره تكديرا علنيا «قضاء أفندم» !

وهكذا انفض الجميع ، وهم يضحكون من النتيجة ، حتى نسيب نفسه راح يقهقه ، كأن القط لم يأكل له عجينا !

ليمون وشنبات : كان نسيب الكيلاني «اشطن» تلميذ في زمانه مع الداعي لله . ولا اذكر انه مر يوم من السنوات السبع التى قضيتها فى المدرسة الاعدادية ، الا وكنت مسجونا فيه «اذزنيز حرمان» ، مع نسيب الكيلاني .

وذات يوم بقي فى المدرسة عشرة تلامذة مسجونين ، وبينهم نسيب وانا طبعا . وكان فى باحة المدرسة اشجار مثمرة من الليمون الحامض ، فرغب نسيب الكيلاني فى ان يقطف شيئا من ثمرها فاحضر «السيبه» التى يصعد عليها الخدم لاشعال الفوانيس ، وتسلق عليها ، وراح يقطف الثمار ويناولنا اياها . وفى هذه الاثناء جاء معاون المدير المناوب وراى ما يجري . وكان المعاون مرعبا جدا وله شنب طويل ، فتقدم من التلميذ الواقف فى اسفل السلم واشار اليه باصبعه ان لا يتكلم ، ثم تقدم المعاون الى تحت السلم وراح يستلم الاثمار من نسيب !

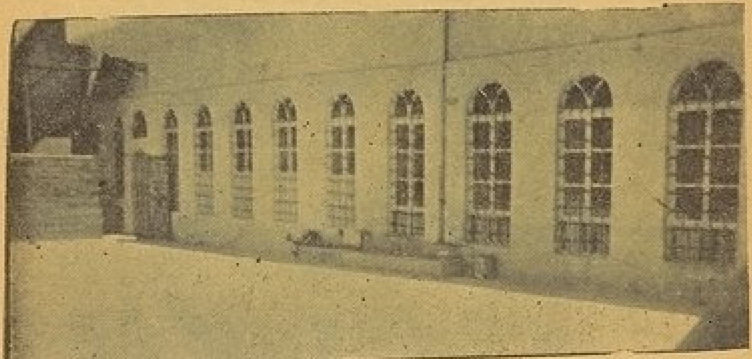
ثم نادى نسيب الطالب ليصعد الى الشجرة ويرى ثمرة كبيرة جدا ، فصعد المعاون حتى اصبح الى جانب نسيب ، فمد نسيب ساعده وعانق المعاون وهو يشير الى الليمونة ، والتصق الخدان ، فاحس نسيب بخشونة شعر الشنب ، والتفت مدهوشا وما كاد يرى وجه المعاون ، حتى قفز عن السلم فوقع الى الارض ووقع معه المعاون ، وقام كل منهما ينفض ملابسه ويضحك .

وذهب المعاون الى غرفته وضرب البوق داعيا الطلاب المسجونين الى الاجتماع ، فاجتمعنا . واذا بالمعاون يقول انه نظرا للنكتة التى رافقت الحادث ، فانه يعفو اليوم عن جميع المسجونين!

ثم فرق على كل تلميذ حبة ليمون واحدة ، مشترطا علينا الا نعود الى مثلها ، واخذ الباقي لنفسه ، وخرجنا ندعو للسلطان بالنصر !

خروف المـــدير : بعد مضي ما يقرب من نصف عام على دخولي المدرسة ، خبرت احوالها وطلابها ، فبدات «شيطنتي» . وكلما مرت الايام كثرت الجزاءات علي ، حتى اصبحت من«زبونات» المدرسة الدائمين ايام التعطيل . ولا ابالغ اذا قلت اني منذ دخولي المدرسة الى يوم احرزت الشهادة فى مدة سبع سنوات ، لم اقض عطلة اسبوعية واحدة فى داري ، بل كنت اقضيها كلها بالحرمان ، مسجونـــا فى المدرسة !

وفى احد الايام نقر المدير على زجاج النافذة بشدة . وكنـــا نلعب فى باحة المدرسة اثناء الفرصة ، فالتفت الطلاب جميعهـــم



باحة اللعب الواقعة فى الساحـــة الخارجيـــة لمكتب عنبر .

نحوه ، ورأيناه ينادي احدنا باصبعه ، فجعل كل منا ينظر الـى الاخر ليرى المدعو . وما لبثت ان ادركت ان المدير يدعوني، فذهبت اليه خائفا وظننت ان هناك وشاية ضدي .

صعدت الى غرفة المدير كما يقول المثل العامي «رجل لـورا ورجل لقدام» . ولما دخلت الغرفة ، وجدت بعض المعلمين الذيـن يتكلمون اللغة العربية ، فقال لي المدير : انت فخري البارودي ؟

فسقط قلبي ، وقلت : نعم !

قال : هل ابوك من اصحاب المزارع ؟

فلما اجبت بالايجاب ، قال :

ـ عندكم غنم فى مزرعتكم ؟

فاجبت بالايجاب ، فقال : وهل والدك من الاجواد ؟

قلت : هكذا يقولون !

قال: عندي خروف واريد ارساله الى المرعى ، وقد دلني الناس عليكم ، فهل يمكنك اخذ هذا الخروف الى مزرعتكم والاعتناء به الى ان يكبر ؟ وهل يرضى والدك ؟

قلت : نعم ، بل اظنه يكون شديد السرور بهذا التكليف !

فاشرق وجهه وقال : اذا انت مأذون اليوم . عند انصراف الاولاد من المدرسة خذ الخروف معك ، ونم فى داركم وعد غدا صباحا .

ضربت «تمني» وخرجت أهبط درجات السلم خمسا خمسا ، الى باحة الملعب حيث كان رفاقي ينتظروني، فابلغتهم الخبر

وفى المساء احتشد اكثر من خمسين طالبا من الطلاب الخارجيين ينتظرون الخروف عند باب المدرسة . ولما خرجت والخروف معي قام الطلاب بمظاهرة ومشينا «بعراضة» نسحب الخروف ونجره ، ومررنا بسوق مدحت باشا بهذا المهرجان حتى وصلنا الى الدار !

قدمت الخروف الى والدي ورويت له الحكاية فضحك ، وامر وكيل الخرج ان يحضر اللحام ويذبح الخروف ، وقال : عندما يطلبه المدير نحضر له خروفا كبيراً بدلا عنه !

ومضت شهور، وانقضى العام وجاء العام الثاني ، واذا بالمدير يناديني ثانية فاسرعت اليه ، فسألني عن الخروف ، فقلت : انه

بخير ، صحته جيدة يقبل يديكم !

فضحك وامرني باحضاره ، فقلت : سأكتب الى والدي .

ومضت أيام ، وكنت مرارا اطلب الخروف ، والوالد «مطنش» لا كتاب ولا جواب ، وانا اختلق الاعذار للمدير . واخيرا لم ار بدا من الذهاب بنفسي ، فاخبرت المدير وطلبت اذنا للسؤال عن الخروف فسمح لي بالذهاب الى الدار مع الطلاب الخارجيين . ولما اخبرت والدي بالحاح المدير، ارسل الى دوما رسولا ليأتي بخروف. وفى الصباح حضر الرسول ومعه خروف صغير ، اصغر من الخروف الذي استلمناه من المدير . فقلت لوالدي : كيف يمكنني تقديم هذا الخروف بعد هذه المدة ؟

قال : اذهب وقدمه واذا «علك» المدير ، قل له ان خروفه «فطس» وهذا بدلا عنه !

اخذت الخروف الى المدير ، فلما رآه غضب غضبا شديدا ، وصاح بي : نه دربو ؟ (يعني : ما هذا ؟)

قلت: هذا خروف !

قال : بو كديدر ! (يعني هذا قط !)

وبالحقيقة كان هذا الخروف بقدر القط ، فحمله المدير ووضعه على رقبتي ، ودفعني الى خارج المدرسة وقال : اذهب الى والدك وقدمه له هدية مني !

وعدت الى الدار بحالة يرثى لها ، فلما رآني والدي غضب وامر وكيل المخرج باحضار اللحام فاحضره ، وذبح الخروف وقال: اذهب الى المدير وقل له : قبلنا الهدية !

دخلت الى الدار ابكي . وكانت عمة والدي السيدة ليلى البارودي ــ وعمرها آنذاك زهاء السبعين ــ فى زيارتنا . فلما عرفت بالامر ، اعطتني دينارا عثمانيا ذهبيا ، وقالت لي : اشتر به كبشا بدل الخروف ، وقدمه الى المدير !

وهكذا كان ، فاشتريت كبشا وذهبت به حالا الى المدرسة وقلت للمدير : اني غلطت بالاول ، فهذا هو كبشك !

فلما رآه المدير فرح به ، وضحك وربت على ظهري ، وخلصني الله من هذه البلية على خير !

من مباذل العصر

قلت فى الفصل السابق انني قضيت سبع سنوات فى المدرسة الاعدادية . وقبل ان انتقل بالقارىء الى المرحلة التالية من حياتي ، اود ان استفيض فى الحديث عن حياة الطلبة فى ذلك المعهد ، كي تكون لدى القارىء صورة واضحة عن المجتمع الذي نشأ فيه جيلنا.

***

بكري الدنكوره : كان فى مكتب عنبر «دكان» يؤجر فى المزاد العلني . وقد رسا اثناء اقامتي فى المدرسة على المدعو زكي البقال .

استخدم زكي هذا صانعا لبقا يدعى بكري ، لقبه الاولاد بـ«الدنكوره» . وكان بكري خفيفا نشيطا ، يلبي وحده جميع طلبات الاولاد فى الفرصة ، عندما يحتشدون امام نافذة الدكان ، ويتصاعد صياحهم : دنكوره هات قلما .. دنكوره اعطني رغيفا.. دنكوره هات راحة الخ.

ولم تكن الفرصة القصيرة لتسمح بتأمين حاجات جميع الطلبة لذلك كان «دنكوره» يسمح لابناء الاغنياء بالدخول الى الدكان والاختباء فيها ، وان كان ذلك ممنوعا . وكان «المبصرون» ، اي المراقبون ، يغضون الطرف عنهم مقابل هدايا يقدمها اليهم صاحب الدكان ، وفقا للمثل القائل : اطعم الفم تستحي العين !

***

المحششة خانه : كان التدخين ممنوعا ، ولكن كل ممنوع مرغوب ، لذلك كان كثير من الطلبة يجتمعون فى باحة صغيرة على مقربة من المراحيض ، حيث لا يأتي احد من هيئة

الادارة ، ويشرعون فى التدخين ، بينما يقف احدهم عند المدخل لانذارهم بالخطر !

هكذا ، لا يكاد «بوري» الاستراحة يدق ، حتى يهرع عشاق التدخين الى «المحششة خانه» ، ويبداون فى التدخين . ولا حاجة للقول انني كنت ، طبعا ، منهم !

***

السيران : كانت ادارة المدرسة تقيم فى فصل الربيع من كل عام سيرانا للطلاب ، تجمع نفقاته منهم ، فتحضر لهم «نوبة» الات موسيقية ، وتستأجر لهم حديقة او بستانا ، ويقضي الطلاب يومهم حتى المساء . واذكر ان الادارة اقامت لنا سنة ١٩٠٧ سيرانا فى حديقة «الافندي» فى حي باب توما ، مثلنا اثناءه رواية باللغة العربية ، فكانت اول رواية مثلت فى مكتب عنبر .

وكان «السيران» فى ذلك العهد جزءا من حياة الناس . وكانت فى دمشق جمعيات مهنية ، غايتها تنظيم التسلية والنزهات لابناء الصنعة . وكان بعض افرادها يركبون فى السيران الرهاوين والخيول ، والبعض الاخر يركب الحمير من هليبية وقبرصية وقروية ، ويسير فرسان كل فئة على حدة ، الى مكان السيران ، حيث يترجلون ، ويبدأ الهرج والمرج .

واذكر ان صغار «الزعران» كانوا يجتمعون قرب الحمير ويصيحون فيها : «زعر ! زعر !» ، فتأخذ كلها فى النهيق ، ويتصاعد منها اصوات منكرة ، فتقوم قيامة اصحابها ، ويلحقون الاطفال بالعصي والحجارة .

وما يزال سكان دمشق الى يومنا هذا يحبون «السيران» فتراهم فى الربيع والصيف منتشرين بين البساتين وعلى ضفاف السواقي ، يتمتعون بجمال الطبيعة .

الرياضة فى مكتب عنبر : لم يكن للرياضة ذكر فى مناهج المدارس العثمانية فى زمننا ، ولذلك كانت العابنا بسيطة ، نقوم بها فى باحة المدرسة ، وهي تكاد لا تتسع لسير خمسين طالبا ، فكيف اذا خرج يلعب فيها خمسماية ؟

من العابنا فى ذلك الحين ، اذكر لعبة الطيح ، الاسير ، ام عميش ، كسرة اليد ، سباق الركض . هذا كل ما كنا نلعبه فى المدرسة الاعدادية . وكان المدير والمعلمون ينظرون الى الولد الرياضي بعين الازدراء ، وينعتونه بالطائش . ولا عجب فانه لم يكن للرياضة فى دمشق كلها شأن يذكر .

اما الالعاب التى كانت شائعة فى دمشق اجمالا ، فانني اذكر منها لعبة «الدوج» ، وهو عبارة عن حجر «مفلطح» ، يحمله اللاعب ويحاول ان يصيب به «النكرة» ، وهي حصاة بحجم الجوز ، فمن يصبها يربح اللعبة ، ويركب على ظهر رفيقه شوطا !

وهناك لعبة «طابة التيس» ، وهي كرة محشوة بالخرق ، يقذفها اللاعب على حجر يكمن وراءه لاعب أخر ، فاذا اصابته احتل مكانه وراء الحجر . ويشترك فيها عادة خمسة او ستة لاعبين ، وتنتهي بان يمتطي الفائزون ظهور المهزومين !

اما كرة القدم وكرة السلة فلم نكن نعرفهما . واني اذكر ان اول لعبة «فوتبول» رايتها فى دمشق كانت تمرينا يقوم به الاخوان نوري وحسن الايبش فى مرجة الحشيش قرب «صدر الباز» ، وكان هناك جسر على نهر بردى ، وميدان فسيح للعب الجريد . واذكر ان الكرة سقطت يومئذ على راس أحد المتفرجين ، المرحوم نعيم الغزي — وكان من المتعممين — فضغطت عمته على راسه الى ما تحت اذنيه . وكان بين المتفرجين حقي باشا مشير الشام ، فضحك حتى وقع طربوشه فى العربة . وقد شاهدته بنفسي لانني

كنت واقفا مع وكيل خرج دارنا امين اغا الى جانب عربة المشير .

وقد تعلم السيد نوري الايبش يومئذ تلك اللعبة من الجامعة الاميركية فى بيروت ، اذ كان طالبا فيها .

* * *

السيف والترس : كانت لعبة السيف فى ذلك العهد ، أكثر الالعاب انتشارا بين الدمشقيين ، توارثوها ابا عن جد ، لانها تعلم الشباب الرجولة والخفة ، وتروض الاجسام ، وتعود الشباب على الصبر ، ولها اصول ثابتة ، لا يمكن الخروج عنها ، ويشترك فى هذه اللعبة من اثنين الى خمسة لاعبين . فاذا لعب اثنان حمل كل واحد منهما سيفا وترسا ، وقد ينضم اليهما ثالث يحمل سيفين ويتوسط اللعب . واذا لعب خمسة تراس احدهم المعركة وحمل سيفين فى آن واحد وتوسط اللاعبين .

ويكون اللعب على الاكثر حبيا . اما اذا وقع خصام بين لاعبين ، فانه ينتهي الى حادث مؤلم . وكان من الرؤساء المشهورين لحلقات السيف والترس ابو سعد الخضري ، ابو شاكر مسلم الخانجي ، الريس العبسه الميداني ، ابو علي الصباغ أبو علي القباني ، ابو صالح رشيد الخجا ، ابو عز وحسن الارناؤوط ، ابو عادل السروجي . واكثر هؤلاء انتقلوا الى رحمة الله .

من تقاليد لعب السيف والترس «الشد» وهو ان يقطع رئيس اللعبة على التلميذ الجديد عهد الولاء ، وبعد ذلك يكرسه لاعبا رسميا ، ويناديه بلقب «ابني» وكانوا يسمون التلميذ بالشراق ، وهي كلمة فارسية تعني المولى .

وتجري هذه المراسم بحضور رؤساء هذا الفن من جميع الاحياء ، فيقرا الريس دعاء مخصوصا لهذه اللعبة وهو : «بعد

الفاتحة سبحان ابدي الابد ، سبحان من بسط الارض على ماء جمد ، سبحان مقسم الارزاق ، من لا ينسى من فضله احد ، سبحانه من ذاته وصفاته ، قل هو الله أحد». ثم ينادي باعلى صوته : صحائف النبي (ص) صحائف «العشرة المبشرة» بالجنة من الصحابة الكرام ، صحائف الاسد الكرار علي بن ابي طالب ، ابن عم النبي المختار ، رضى الله عنه وكرم وجهه ، صحائف فاتح الشام ابو عبيدة الجراح ، صحائف سيف الاسلام خالد بن الوليد رضى الله عنه ، صحائف فلان وابي فلان وابي فلان ويعدد اسماء ابرز الحاضرين من وجوه المحلات .

ثم يفتح بقجة منا لثياب ، فيها قنباز حريري يسمى بالصاية ، وشملة ، فيلبسون التلميذ الصاية . ومتى زنروه بالمشلح دخل فى جماعة اللاعبين ، ويقراون الفاتحة ، ويصبح الشاب بعد ذلك لاعبا ، ويمكنه ان يشترك فى طوابق اللعب !

***

لعبة الحكم : لعبة يتمرن عليها اولاد الاحياء ، تمهيدا لانتقالهم الى لعب السيف والترس . ولا يتمكن لاعب السيف من اجادة لعبته الا اذا تعلم الحكم .

عدة هذه اللعبة هي درقتان من جلد ، محشوتان بالصوف او القطن ، وللدرقتين مقابض يتقي بها اللاعب ضربات خصمه . والدرقة الواحدة اسمها «حكمه» ، واللعب يكون بقضيب من الخيزران او السفرجل .

وهذه اللعبة تربي فى الشاب عضلاته ، وتعلمه على الشجاعة والصبر وهي من انفع الالعاب . وليت النوادي تعيدها سيرتها الاولى!

باشاوات واوسمة

اثناء السنوات السبع التى قضيتها فى مكتب عنبر ، لم انل اية اجازة استثنائية ، بسبب «شيطنتي» ، الا يوم انعم السلطان عبد الحميد على خال والدي عطا البكري ، برتبة الباشويـــة . وعندئذ تعطف مدير المدرسة ، واجازني ثلاثة ايام . ولم يبق يومئذ فى دمشق احد من الاصدقاء والاحباب الا شاركنا بافراحنا . ولا عجب فان الحصول على الباشوية فى تلك الايام كان حدثا عظيما، لان مقاييس الدنيا كانت يومئذ رتبا والقابا !

لما كانت الرتب تعطى من الاستانة ، فقد كان اكثر الذيـن يحظون بها من موظفي الدولة الاتراك ، خصوصا من ابناء الاستانة نفسها ، وممن يتعين فيها من ابناء الولايات . وكانوا يسمون الاقطار الخارجة عن العاصمة «طشره» . وكان لقب الباشوية يعطى لكل من يصبح وزيرا ، ولو لم يكن تركيا. اي من «ألطشرليه»

وكان وجوه البلاد من الاغنياء يطمعون بنيل الرتب ، مع انها رتب فخرية لا راتب لها . ومع الزمن ولدت مهنة جديدة ، هـي مهنة السماسرة الذين يتولون الوساطة بين طالب الباشوية وبـين استانبول ، لبيع اللقب بالمال . وفى اواخر ايام السلطان عبد الحميد بلغ ثمن الباشوية مائتي ليرة ذهبية عثمانية ، وهو مبلغ كبـير بالنسبة الى ذلك العهد .

عرفت سمسارا للرتب باع رتبا كثيرة فى دمشق . فكـان اذا اختلف مع احد الباشوات اعلن بصوت جهوري على الملأ انـه سيسحب الباشوية من فلان ، لانه هو الذي اتاه بها !

ركبت يوما مع والدي قاصدين الى دوما ، حتى وصلنا الى قطعة ارض تدعى «البحصة» ، فوقفنا امامها . وكان العمـال ينصبون فيها مروشا ، اي نصب زيتون ، فالتقينا هناك بسمسار



نوذج من حملة الرتب والالبسة المزركشة: صورة الوفد السلطاني الى تدشين الخط الحجازي فى دمشق سنة ١٩٠٨، وترى فى الصف الاول جلوسا من اليمين : الفريق بحري باشا ، مندوب السلطان رحمي باشا ، المدير العام للخط الحجازي كاظم باشا ، المشير رضا باشا . اما الوقوف فهم من اليمين : الامير الاي ناجي بك ، باشا المدفعية زري باشا ، عبدالرحمن باشا اليوسف ، محمد باشا العظم ، جواد باشا مشير الشام .

مشهور بتدبير الالقاب ، فقال لوالدي : ما رايك يا ابافخري بباشوية بمائتي ليرة عثمانية ؟

فضحك والدي وقال : ان «مروشة» واحدة من هذه الشجيرات تساوي عندي جميع الرتب الحكومية !

***

رتب الدولة العثمانية : كانت الرتب يومئذ على ثلاثة اقسام : ملكية ، وعسكرية ، وعلمية . وكانت تعطى بفرمان ، اي بمرسوم ملكي يصدر عن السلطان ، وهي على درجات متفاوتة .

واذا وجد صاحبا درجة واحدة يتقدم صاحب الرتبة السابقة بالتاريخ زميله حامل نفس الرتبة . ولكل رتبة لباس خاص منقوش بالسيم المعروف عندنا الـ « صرمة » اي القصب .

اما الاعياد والايام الرسمية التى كانوا يرتدون فيها لباس التشريفات ، فهي عيد الاضحى وعيدالفطر وعيدا جلوس وولادة السلطان ، ويوما خروج المحمل من دمشق ، وعودته اليها .

وكان اصحاب الرتب يفرحون فى المواسم الرسمية فرح الاولاد بالاعياد ، فيقضون الليل فى تعهد لباس التشريفات بالمسح والكي ، وتلميع السيم بالزيت لازالة الصدا عنه .

حدثني مرة صديقي المرحوم تيمور باشا فقال : فى احد ايام المراسم اخرجت لباس التشريفة لتهيئته ، واذا بولدي الصغير يركض ويمسك بالرداء ، ويصر على ان يلبسه . وعبثا حاولنا اقناعه بالعدول عن هذا الطلب ، فقال لي الصغير : لمن تكون زخارف القصب ، اللصغار ام للكبار ؟

قال احمد تيمور : ومن ذلك اليوم لم اعد ارتدي ذلك اللباس!

* * *

وفيما يلي تفصيل الرتب فى العهد العثماني ، مع تفصيل الرتب التى كانت تعطى لها :

الرتب الملكية : رتبة الوزارة باشا ، مير ميران اولى صنف ثاني باشا ، رتبة اولى صنف اول بك ، رتبة ثانية صنف متمايز بك ، رتبة ثانية صنف ثاني بك ، رتبة ثالثة وركاب همايون وقيوجي باشي لغي افندي ، رتبة رابعة وخامسة افندي .

الرتب العسكرية : مشير باشا، فريق اول باشا ، فريق باشا ، ميرالاي بك ، عسكري قائمقامي بك ، الاي اميني وقول اغاسي افندي او اغا ، يوزباشي اغا .

الرتبة العلمية : كانت كلها «افندي» وتعطى الى : صدر روم ايلي ، صدر اناطولي ، حرمين شريفين مولويتي، بلاد خمسة مولويتي ، مخرج مولويتي ، موصلة سليمانية ، خواجكان.

* * *

وسام ... للحمار ! ـ كما كان الاغنياء يتنافسون على الرتب ، كانوا يتنافسون على الاوسمة العثمانية ، ويدفعون ثمنها غاليا. واذكر بمناسبة حديث الاوسمة حكاية وقعت يوم زار امبراطور المانيا غليوم الثاني، دمشق فى سنة ١٨٩٨ ، فاستقبلته المدينة استقبالا عظيما.



الحمار حامل وسام امبراطور المانيا .. يركبه حسن تللو (الطفل الصغير)

فى اثناء الاستقبال لاحظت الامبراطورة حمارا ابيض، فاستلفت نظرها ، وطلبت الى الوالي أن يأتيها به ، لكي تأخذه معها ذكـــرى. فراح الوالي يبحث عن صاحب الحمار ، فعلم انه يخص ابا الخـــير اغا تللو . وكان الاغا من وجوه محلته ، ويفاخر دائما بان له حبيبين: الحمـــــار وحفيده حسني !

استدعى الوالي ابا الخير ، وطلب اليه اهداء الحمـــار الـــى الامبراطورة ، فاعتذر . فعرض عليه شراءه منه ، فاصر علـــى الرفض ، ولما اشتد الوالي فى الالحاح ، اجابه ابو الخير :

ـ يا افندينا ، ان لدي ستة رؤوس من الخيل الجياد ، ان شئت قدمتها كلها الى الامبراطورة هدية مني ، اما الحمار فلا !

استغرب الوالي هذا الجواب ، وسأله : ولماذا ؟

قال : سيدي . . . اذا اخذوا الحمار الى بلادهم ستكتب جرايد الدنيا عنه ، ويصبح الحمار الشامي موضع النكتة وربما السخريـــة، فيقول الناس ان امبراطورة المانيا لم تجد فى دمشق ما يعجبها غير الحمار . لذلك لن اقدمه اليها ، ولن ابيعه !

ونقل الوالي الخبر الى الامبراطور والامبراطورة ، فضحكـــا كثيرا ، واعجبا بالجواب ، واصدر الامبراطور امره بمنح ابي الخـــير وساما ، فسماه « وسام الحمار » ، واشتهر امره زمنا فى دمشق !

***

الاطفائيـــة ـ ضرب البوق فى منتصف احدى الليالي ، وكنـــا نياما فى مهجع «مكتب عنبر»، فصحونا على نداءات متتالية : يانغين وار ! يانغين وار ! (حريق ! حريق !)

نهض كبار الطلاب ، وهرعوا بلباس النوم الى المضخة الموجودة فى مدخل المكتب ، وحملوها الى مكان الحريق فى المطبخ حيث اطفأوه. وبعد ثلاث ساعات تقريبا وصلت فرقة « الاطفائية » البلدية، ومعها

مضخة على اربع عجلات يدفعها الناس ، وهم يصيحون : حريقة ! حريقـــــة !

وجرت العادة يومئذ اذا وقع حريق ، ان يخرج موظف الاطفاء في البلدية الى الساحة ، وينادي « حريقة ! حريقة ! » . وكـــــان الرعاع المعروفون باسم « بابا حسن » ، او « كلهان بك » بالتركيـــة، يجتمعون عادة قرب سوق الخيل وساحة المرجة وسوق علي باشـــا وسوق السنجقدار وزقاق رامي ، فعندما يسمعون النداء، يتراكضون الى البلدية ، حتى اذا اصبح عددهم كافيا ، حملوا المضخة ، اوجروها على العربة ، الى مكان الحريق . وكانوا يفعلون ذلك حبا بالنهب . وليس بينهم من يتقاضى «اكرامية» من صاحب المحل المحروق ســـوى رئيس الاطفائيـــة .

يقظة الروح العربية

اربعماية سنة ونيف كانت قد مرت على الاتراك وهم يحكمون بلادنا لما دخلنا مكتب عنبر . وكان من الطبيعي ان يتولد شيء من النفور بين ابناء الحاكم وابناء المحكوم . فالاتراك كانوا يومئذ ابناء الست، ونحن ابناء الجارية . ولم يكن احدنا ليجرا على رفع راسه امام المعلمين ورجال الادارة ، وكلهم من الاتراك ، كما ان رهبة الحكم العثماني كانت تملأ القلوب .



احمد باشا الشمعة

ان انس لا انس مشهدا! رايته امام دار احمد باشا الشمعة . كان احمد باشا من اخص رجال عبد الحميد ، سلطان البرين وخاقان البحرين ، وقد منحه السلطان امتيازا عن سائر رجال الخاصة اذ اعطاه آلة برق (تلغراف) مرسلة ولاقطة في داره ، ليخابر بها السلطان راسا .

غضب السلطان على احمد باشا يوما ، لسبب اجهله ، فأمر باعتقاله في داره ، ووقف امام بابه « بوليس نظامي » ، اي شرطي بلباسه الرسمي ، يراقب كل داخل وخارج ، ويسجل اسماءهم . وقد مررت يوما من هناك ، فرايت المارة يضطربون عندما يقتربون من

دار الشمعة ، فيثبتون انظارهم الى الامام،حتى لايلتفتوا لفتةواحدة نحو باب الباشا ، خوفا من ان يحاسبوا على النظرات !

بسبب هذاالرعب الذي بثه الحكم العثماني فى النفوس ، لـم يكن احد يجرؤ على ذكر العرب والعروبة ، خصوصا من الذيـن يعيشون مع الاتراك فى السرايات ودوائر الحكومة .

فى تلك الايام بدات الروح العربية تستيقظ خصوصا فى الشبان وبدات نغمة ترك وعرب تتردد فى المجتمعات الخاصة ، واخذ بعض الطلاب فى مكتب عنبر يتمردون على المعلمين الاتراك . وقد سبب ذلك ظهور روح شريرة عند العناصر غير العربية ، كالترك والكريديين والارناؤوط ، فراحوا يتحرشون بنا ، هذا بالنعر وذاك بالنكش،ونحن نرد عليهم بالمثل . وما لبثوا ان شكلوا جمعية من اصحاب الاجسام البدينة سموها « طاغلر جمعيتي » ، اي جمعية الجبال ، وعلىراسهم بدر الدين السباهي ،شقيق الاستاذ نجم الدين السباهي الاديب التركي المشهور ، وهو من الارناؤوط . وكان من عادة «الطاغلريه» ان ينتظم كل اربعة او خمسة منهم فى صف واحد ، ويركضوا فى الملعب ، فيدفعوا امامهم كل من يعترضهم من الطلاب المفردين . وعلى الاثر شكل الطلبة العرب مقابلهم كتلة من اصحاب الاجسام المتينة ، منهم السيد رشدي القوتلي (ابو راشد) ، والسيد توفيق المالكي (ابو الرعود) والسيد نسيب البكري (ابو عطا) والداعي لله (ابو الحسن) لخ .

ومع الزمن ازدادت العداوة، وانتقل الاحتكاك من اللعبالخشن الى الشجار داخل المكتب ، ثم خارجه . وكنت يومئذ قد بلغتالصف الثالث (حول السنة ١٩٠٤) ، فكنا نتواعد على الصدام معهم فى مكان ما خارج المدرسة . وكانوا يجلبون معهم رفقاءهم من محلة المهاجرين، ونحن نحضر معنا رفقاءنا ، فيدور شجار يكثر فيه الجرحى . واخيرا تدخلت الحكومة ، وجعلت ترسل شرطة خاصة الى الساحاتلتمنع الخصام والشجار . هكذا كان النفور يتزايد بيننا وبينهم كلما

تقدمنا بالصفوف ، حتى جاءت سنة ١٩٠٨ م ، ووقع الانقلاب العثماني .

***

معركة شخصية : وفى معرض هذا البحث اذكر حادثا شخصيا وقع لي مع بدري السباهي رئيس جمعية « الطاغلرية » المشار اليها. فقد اشتد العداء بيني وبينه بصورة لا مثيل لها بين سائر الطلبة حتى تواعدت واياه على النزول فى المساء ، بشرط الا يخبر احدنا احدا من رفقائه بالامر ، وبالفعل لم نخبر احدا ، واجتمعنا فى اخر زقاق الحمراوي قرب مدخل «القباقبية»، فتماسكنا وتشابكنا بالايدي، ودار اللكم واللطم ، والخبط والرفس ، والخدش والخمش ، حتى سالت الدماء من وجهينا . ثم ضربته بطبق الطعام « السفرطاس » ، فاصبته فى جبينه بجرح بليغ . وهنا تدخل بعض المارة وفرقونا والدماء تسيل منا .

وبينما كان الناس يبعدون كلا منا عن الاخر ، كانت الشتائم تنطلق من فم كل منا كالرشاش : أنا اشتم بالعربية ، وهو يشتم بالتركية . واعتقد ان الشتائم التركيةاقبح بكثير من الشتائم العربية. وبينما نحن فى هذه الحال ، اذا بالمدير المعاون فىمكتبعنبر، نظاميات افندي ، يمر بنا ، فوقف والقى علينا درسا بالاخلاق ، ولم يفارقنا حتى صالحني واياه ، فقبل احدنا الاخر ، ومشينا سوية كأن لم يجر شيء بيننا اصلا !

عيون تتفتح

بدات عيوننا تتفتح على الحقائق القومية حول السنة ١٩٠٥ – ١٩٠٦ ، وهي السنة التي نلت فيها الشهادة المتوسطة . ولا يستطيع ان يقدر الفرح الذي ساورني بهذا النجاح الامن دخل الفحص ونال الشهادة .

وفى السنة السادسة بدات أطالع بعض الصحف المصرية التي كانت تتسرب الى دمشق كالمقطم والاهرام والمؤيد ، ولاادري كيف كانت تصل اليها ، لانها كانت ممنوعة . ولم تكن نحن نعرف من الجرائد الا جريدة « الشام » .

واذكر ان بعض اصدقاء لي كمحي الدين الخطيب وعثمان مردم بك ، كانوا يأتون بعدد او عددين من الجرائد المصرية وينقلونها الى عدد محدود من اصدقائهم من الشبان الناشئين ، فيمر العدد من يد ليد بصورة خفية ، دون ان يطلع على ذلك احد .

وكان قد بدأ يتكون فى دمشق جمهور من الشباب العرب ، من خريجي المدارس العالية كالطب والحقوق والمكتب الملكي ، وهو اعلى مدرسة لاخراج الموظفين الاداريين .وكانوا يعقدون اجتماعات خاصة ، ويخوضون فى احاديث جديدة غير مألوفة عند الدمشقيين آنذاك . فبينما كان الدمشقي يومئذ من اي طبقة كان ، لا يتحدث الا عن طعام يومه، وعن الاشكال التي اكلها وكيفية طبخها والدعوات التي دعي اليها ، والحفلات الكبيرة التي اقامها وجهاء البلدة ، كان هؤلاء الشبان الناهضون يتحدثون عن اوروبا وتقدمها وعلومها ، وعن نهضات الشعوب ، والشكوى من ظلم الحكومة ، واستبداد السلطان عبد الحميد ، وسرد حكايات طويلة عريضة عن اغراق الاحرار في بحر مرمرة ، وتعذيب الالوف من الشبان المطالبين بالاصلاح.



الشيخ طاهر الجزائري المغربي (الى اليسار جلوسا) فالشيخ محمد البارك فالسيد عبد الباقي الجزائري

وكنا نسمع هذه الاحاديث فى مجالس الشبان كلما سنحت لنا فرصة بالاجتماع اليهم ، ومن بينهم السادة : شكري العسلي ، عبدالوهاب الانكليزي وسليم الجزائري . (وقد شنقهم جلال باشا اثناء الحرب) والاستاذ محمد كرد علي ، والدكتور عبد الرحمن شهبندر ، وعلى رأسهم شيخ احرار العرب ذلك الحين ، الشيخ طاهر المغربي الجزائري ، وهو شيخهم وشيخنا ، وله اكبر فضل فى تنوير الابصار والبصائر ، ودفع العرب فى طريق التقدم . وهو اول من فتح مدارس البنات فى دمشق .

وكان يحضر اجتماعات الشلة الشيخ سليم البخاري ، والشيخ

جمال القاسمي ، والشيخ عبد الرزاق البيطار ، وهم من الشيوخ الاحرار المجددين ، وكانوا جميعا موضع نقمة الحكومة .

وكنا اذا حضرنا مجالسهم ، يتحفظون امامنا . وعلى الرغم من ذلك كانت احاديثهم اصلاحية توجيهية ، فاتهمهم بعض الناس بانهم وهابيون ، واتهمهم اخرون بالماسونية .

فى هذا المحيط فتحت عيني على الدليا ، ومن رجاله اقتبست الوطنية والحرية ، ومن شبابه تعلمت الجسارة والجراءة . رحم الله من مات منهم ، واحسن الى من بقى حيا !

الانقلاب العثماني

فى السنة الدراسية ١٣٢٣ ـ ١٣٢٤ مالية (١) ، اي فى العام ١٩٠٨ ، وقع الانقلاب العثماني . وكنا يومئذ فى الصف السابع الاخير ، والسنة على وشك الانتهاء ، فقامت القيامة ، وخرج المنادون ينادون فى الاسواق باعلان الدستور والحرية والمساواة والعدالة ، واقيمت الزينات ، وراح الناس يهتفون مع الهاتفين ، دون ان يفهموا شيئا مما جرى . وما اقل الذين كانوا يفهمون معنى الحرية التي ينادون بها !

فى اثناء المهرجانات ظهرت شلة الاحرار الذين تقدم ذكرهم،على مسرح الانقلاب ، فكانوا فى مقدمة فرسان هذا الميدان .

قامت بالانقلاب جمعية « الاتحاد والترقي » ، وكانت سرية حتى وقع الانقلاب ، فظهرت علنا بعده ، وعلى راس رجالها نيازي وانور .

وفى مدة قليلة تشكلت لها فروع فى جميع الولايات ، وساعد على تشكيلها الموظفون الذين نفاهم عبد الحميد من الاستانة . وكان منهم فى دمشق مدير معارف الشام حسين عوني بك ، وهو من احرار الترك ، وشى به احدهم الى السلطان ، ففر على الاثر الى انكلترا ملتجئا ، وقضى فيها بعض سنين . من ثم توسطت له السفارة الانكليزية ، وحصلت على عفو ، فعاد بوظيفة مدير معارف ولاية سوريا . وكان ربانا لاحدى بواخر الدولة عند فراره .

هذا الرجل له حوادث عجيبة ما زلت اذكر بعضها . كان

---

(١) لما كانت اشهر السنة الهجرية تتبدل فصولها على مر الايام ، كان يقع تشويش فى جباية اموال الدولة وقيودها ، فقررت لجنة الاصلاحات الخيرية تبديل السنة الهجرية بالسنة الميلادية وطبقوا ذلك فى سنة ١٢٥٦ هـ وجعلوا اسم السنة مالية بدلا عن ميلادية .

صلبا ، ضيق الصدر ، قصير القامة اذا مشى بين الاولاد يبدو اقصرهم ، وكثيرا ما كان يدفعه احد الطلاب اثناء ركضه فيثور وينزل بسوطه على الطالب حتى يحرمه العافية .

اتاه مرة احد أبناء الاسر العريقة بكتاب توصية من وزير كبير في الاستانة ، مرسل اليه بواسطة الوالي ناظم باشا ، فما كان منه الا ان مزق الكتاب وقال للطالب : اذهب وقل للوالي ان يبرق الى قريبك الوزير ، اني مزقت الكتابين ودستهما برجلي هكـــذا !

ورمى بالاوراق الممزقة الى الارض وداسها برجله وكان ذلك قبل اعلان الدستور بسنة او سنتين .

وهذا الرجل برز بعد الانقلاب العثماني ، واستلم ارفع مركز في جمعية الاتحاد والترقي ، واصبح هو ومعاونه هاشم بك المسيطرين على فرع الجمعية في سوريا . وكان الناس قد اخذوا يتهافتون على الانخراط في الجمعية بكثرة ، مما سيرد تفصيله

هزة الانقلاب

وصل خبر الانقلاب العثماني من الاستانة مساء ١١ تموز فاعلنته حكومة الولاية فى الساعة الحادية عشرة ليلا . وفى الصباح التالي ــ وكان يوم سبت ــ خرج المنادون الى الاسواق ينادون بـه، دون ان يفهم اكثر الناس معناه ومرماه .

وقد اسقط فى ايدي رجال الحكومة المحلية . وحاروا فى تعيين موقفهم من رجال المعارضة بعد هذا الانقلاب . وقدسارع كثيرون منهم الى تبديل خطتهم ، وتقربوا من الاحرار الذين استلموا فرع جمعية الاتحاد والترقي فى دمشق ، وعلى راسهم حسين عوني بك .

ذكرت فى الفصل السابق شيئا عن حياة حسين عوني بك، وعن اخلاقه . واذكر الان حكاية اخرى عنه :

كانت حكومة عبدالحميد تؤخر فى بعض الاحيان دفع رواتب الموظفين شهرا او يزيد . ولذا كان الموظفون يبيعون سندات رواتبهم الى سماسرة مخصوصين ، يشترون الليرة بريال مجيدي وكان على راس هؤلاء « دفتر دار » الولاية ، اي مدير ماليتها ، وهو من اتراك الاستانة .

وقدساوم احد السماسرة حسين عوني على شراء راتبه فى احد الاعياد فابى البيع . وعندئذ اخروا دفع راتبه ، فابرق الى السلطان عبدالحميد برقية قال فيها : « جميع الموظفين فرحوا بأخذ رواتبهم فى هذا العيد الا انا ، فقد اخروا عني الدفع . فهل هذا هو العدل السلطاني ؟ انتظر الانصاف ! »

وصدف ان وصلت البرقية بسرعة الى يد السلطان ، فاصدر ارادته بتعيين حسين عوني مديرا للمعارف فى دمشق . وبالرغم من انه اصبح موظفا كبيرا ، ظل تحت المراقبة حتى اعلان الدستور،

اذ ظهر على المسرح السياسي واستلم رياسة فرع جمعيـــة الاتحاد والترقي التي قامت بهذا الانقلاب .

اما اعضاء الفرع فكانوا خليطا من العسكريين والملكيين ، وفيهم بعض ابناء دمشق ، فكان من الاعضاء العاملين بهاء الدين بك المناسترلي واسعد بك اركان حرب ، الذي تعين بعد الدستور مديرا للشرطة فى دمشق ، وهو من اسرة الدرويش من طرابلس الشـــام ، المنتميـة الى ال قرقمـــاز .

وكان من اعضاء الفرع السيد احمد ابش، ومن الاعضاء المساعدين مجيد باشا العظم ، عبدالرحمن باشا اليوسف ، جبران لويس وغيرهم

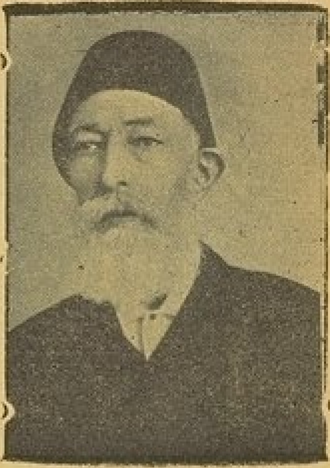
اما المثقفون من ابناء البلاد فانهم ساروا بهذا التيار ومشـــوا مع احرار الاتراك ينادون مثلهم ، ويخطبون ويرشدون النـــاس الى تفسير ما غاب عنهم تفسيره من الكلمات الجديدة : حريـــت ، مساوات ، عدالت ، اخوت (اي الحرية والمساواة والعدالة والاخوة) .

وجدت هذه الكلمات صدى فى نفوس الناس ، وراح الاتحاديون ينادون بالاخاء ، فيجمعون رجال الاديان المختلفة ، ويطلبون اليهم ان يتعانقوا بعضهم مع بعض ، ويخطبون بعد العناق بتأييد هـــذا الاخاء . وكان اكثر التأييد على ما اظن ظاهريا لان حال البـــلاد بعد اعلان الحرية ظل على ما هو عليه ، ولم يتغير فيها الا الكلمـــات اي بدلا من « بادشاهم جوق يشا » ، اصبحوا ينادون « يشاســـون حريت » . اما الادارة ومعاملات دوائر الدولة فلم تتبدل !

وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعايتهم اللوج الماسوني الـــذي كان مغلقا قبل الدستور وكان مربوطا بالمحفل الايطالي ، ومن اركانـــه المرحوم الامير عبدالقادر الجزائري . وبعد الانقلاب فتح المحفل ابوابه وجمع الاعضاء شملهم ، واسسوا محفلا جديدا اسموه محفل « نور دمشق » وربطوه بالمحفل الاسكتلندي ، وقد تعاقب على رئاستـــه السادة مصطفى السباعي الخطاط المشهود جبران لويس ، ثــم

غالب شاوول مدير البنك العثماني ، ثم الاستاذ فارس الخوري ، وهو من اعضاء شلة الاحرار تلامذة الشيخ طاهر الجزائري . وبعد نشاط قصير عادوا فاغلقوا المحفل ، وما يزال مغلقا الى الان .

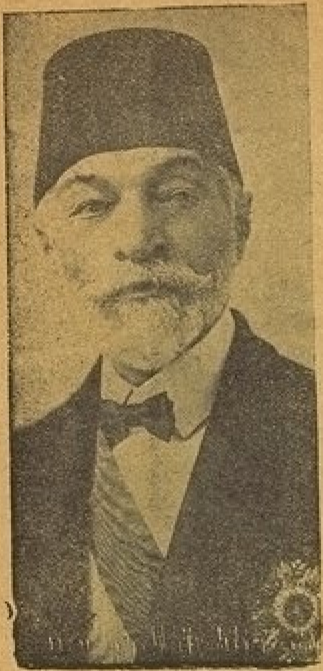
ظهور الخطباء : استمر الابتهاج بالانقلاب زمنا طويل ، وراح الناس يتسابقون فى اقامة المهرجانات ، فيقوم فيها الخطباء ويستفزون حماسة الجماهير بالعبارات الرنانة المزوقة .


السيد مصطفى السباعي

لم يكن فى دمشق بذلك التاريخ خطباء بالمعنى المقصود من الخطابة وكان خطباء المساجد موظفين يقراون ايام الجمعة الكراسات المطبوعة . وكانت خطبة المساجد فى العهد العثماني واحدة ،وهي الخطب التي وضعها ابن نباته منذ الف سنة .

اما الخطباء المدنيون فلم تكن نعرف عنهم شيئا ، ولم اسمع فى عمري خطيبا خارج المساجد الا عند اعلان الانقلاب ، حيث قام شبان الاتراك يخطبون باللغة التركية ، وخريجو المدارس العالية من ابنائنا يخطبون باللغة العربية ، ومنهم السادة الانكليزي والشهبندر وفارس الخوري . وكانوا يؤثرون على الجماهير باقوالهم ، ويسترسلون فى الحديث عن الحرية ومعانيها .

ومن اطرف ما وقع فى هذا الموضوع ان ضابطا من ابناء دمشق يدعى احمد جودت كان من اشد المتحمسين للحرية ، فراح يعدو من حي الى حي ليفهم الناس معنى الانقلاب . وقد رايته ليلة فى حي الميدان يخطب باللهجة العامية ، فحمل على احمد عزت باشا العابد حملة شعواء ، واتهمه بكل شنيعة .



احمد عزت باشا العابد

وكان عزت باشا من ابنـــاء الميدان ، واهل الميدان موصوفون بالرجولة ، فاستاؤوا من التعرض لزعيمهم . فلما راى الخطـيب ان العين احمرت عليه ، وسـمع الهمهمة من كل جهة، احــس بالخطر، فطلب الى ضابط الجوقة الموسيقية العسكرية ان تتهيـا للعزف ، وقــال :

ـ اتعرفــون يا اخوان ما هي الحرية ؟ الحرية غزالة مسجونة فى قفص،فتحوالها الباب وفرت . . فرت الى الصحراء . هذه هـي الحرية !

ثم التفت الى الجوقة وقــال : « مزيكه دقي ! » ! فالتهى الناس بانغـــامها ونزل الخطيـــب عن المنبر وتــــوارى !

* * *

المشـير فـــؤاد باشا : كـــان بين كبـــار الاتراك المنفيين فى دمشـــق المشـــير فؤاد باشـــــا ، المعروف بـ « دلي فؤاد» ، اي فؤاد المجنون. وقد نفاه السلطان عبدالحميـد من الاستانة الى دمشق ، فسجن فى البناية التي كانت يومئـــذ ناديا للضباط ، وهي قرب الثكنة العسكرية . وقد اصبحت اليـــوم جزءا من الجامعة السورية .



المشير فؤاد باشا ، وكان ياورا عند عبد الحميد ، ثم نفاه الى دمشـــق سنة ١٩٠٢ ، وظل فيهـــا حتى سنة ١٩٠٨

ولما اعلنت الحرية لم يطلق سراحه ، ولذلك ذهب الاستاذ فارس الخوري واسعد بك اركان حرب الى مدعي عام الولاية ، وطلبا اليه اخلاء سبيل فؤاد باشا ، فاجاب : لم يصلني اوامر من الاستانة !


الامير عبدالقادر الجزائري

قالوا : اي اوامر تنتظر ؟ هل بيدك امر مخطوط بسجنه ؟

فلما اجاب سلبا ، قالوا : اذن القانون يمنعك من ابقائه في السجن!

وعلى الاثر ذهب المدعي العام مع السيدين الخوري واسعد قرقماز واخرجوا المشير من سجنه ، ولا ادري اين ذهبوا به ولكن الذي اعرفه انهم اقاموا له حفلة تكريم في حديقة الدفتر دار وهي الحديقة الواقعة امام مدرسة التجهيز الاولى ، عزفت فيها الموسيقى العسكرية وخطب فيها الخطباء وسمعنا فيها المرحوم الدكتور عبدالرحمن الشهبندر يخطب لاول مرة في دمشق . واذكر انه اخرج منديله وطلب الى الناس اخراج مناديلهم ، وصار يلوح بمنديله ويقول : « اعملوا مثلما اعمل !» فصار الناس يلوحون بمناديلهم ، فكانت هذه العملية مثارا لانتقاد بعض الاوساط الناقمة على هذا الدور .

ومن الطف ما جرى بهذه الحفلة انهم كلفوا بعض الوجهاء بالقاء كلمة في هذه الحفلة . ولما كان اكثرهم لم يقفوا على المنابر

فى حياتهم ، فقد تلعثموا ، ومنهم الامير علي عبد القادر الجزائري الذي قرأ خطابا مكتوبا ، وكان نور السراج ضعيفا ، فوصل الى كلمة لم يتمكن من قراءتها ، فنادى باعلى صوته « مطموسة »، وترك الكلمة واستمر فى قراءة الخطاب ، فكان لهذه النكتة وقع جميل وصفق له الحاضرون طويلا !

انا وحسين عوني

ذكرت سابقا ان الانقلاب جرى قبيل ايام الفحص ، فكان لنا مفاجأة قوية اضعنا فيها عقولنا ، ثم جاء الفحص فوقعنا بين تيارين يتقاذفاننا : الفحص ونشوة الاحتفالات . وكان مدير المعارف حسين عوني بك (الرئيس الجديد لفرع الاتحاد والترقي) يلقي علينا ثلاثة دروس وهي علم الفلك والمواليد الثلاثة والجبر . فلما جاء فحص علم الفلك دخلت بدوري الى القاعة فاذا بالمدير يقلب وجهه ويكلمني بجفاء ، وانتهرني قائلا : « ارسم على اللوح دائرة ! »

رسمت دائرة ، فقال بصوت عال كأنه يشاجرني : افرض هذا القمر ، فاكتب اوجه وحضيضه !

فكتبت لشدة اضطرابي كلمة « الحضيض » فى اعلى الدائرة وكلمة « الاوج » فى اسفلها ، فصاح بي بشدة : اخرج ،تنبل !

طار صوابي من هذه المعاملة ، لا سيما وان حسين عوني قد اصبح اكبر من الوالي ومن المشير ، وهو الآمر الناهي فى الولاية ، لا ترتد له كلمة . امرني بالخروج فلم افعل ، فدارت بيننا مشادة تركني على اثرها واقفا بجانب اللوح ودعا عدة طلاب فحصهم وانا واقف ، ثم تداخل المميزون فى الامر وهداوا روعه ، فالقى علي بضعة اسئلة اخرى اجبت عليها ونجحت .

ثم جاء دور الفحص فى « المواليد الثلاثة » فاراد حسين عوني معاكستي ولكني نجحت ايضا . وجاء دور الجبر فدخلت بدوري فلما رآني ضحك وقال بصوت عال : دوشدنمي (اي هل وقعت ؟)

اجبت بالايجاب ، فالقى علي مسألة ذات خمسة مجاهل ومعلوم واحد ، فلم اقدر على حلها فاعطاني صفرا .

م — ٥

واذكر انني لما لم اجب ، قال : خذ القلم وضع الرقم الذي تستحقه إلى جانب اسمك !

اخذت القلم ووضعت رقم عشرة فضحك واخذ القلم ، ووضع نقطة وهو يقول ، صفر ، صفر ، صفر !



علي السقا اميني

سقط بهذه المسالة تسعة تلامذة جاؤوا بعدي وكان المعلمون قد اجتمعوا خارج غرفة الفحص وانهمكوا كلهم بحل المسالة ،فحلها اخيرا الاستاذ خير الدين افندي انجوق واخذها عنه رفيقنا الدكتور علي الابرش الصالحاني ، فدخل الفحص وفاز باولية الجبر .

وفي دورة الاكمال فحص حسين عوني جميع المكملين ، الا انا فانه لم يقبل ان يفحصني حتى تداخل وكيلي علي افندي السقا اميني ، الذي ولاه ابي امري منذ دخولي مدارس الحكومة ، فقبل ان يفحصني . ولما دخلت عليه قال : ان صدقتني القول نجحتك . هل اتيت بخنجرك ؟

قلت : اي خنجر ؟

قال : الذي تريد ان تقتلني به !

فعرفت عندها ان احد اخصامي في المدرسة وشى بي اليه وشاية كاذبة ، فقلت له: يا سيدي انت من الاحرار ، وكنت ضحية الوشاية فهل تريد ان تسمع وشاية بتلميذ ضعيف ، وانت رئيس الاحرار في دمشق ؟

فضحك وكتب على ورقة الاكمال رقم خمسة دون ان يفحصني وقال : اذهب اذن ، وهذا الرقم هو « دفع بلا » عن صحتي !

وقد علمت فى ما بعد ان احد الطلبة الاتراك هو الذي وشى بي الى حسين عوني بك ، انتقاما مني بسبب الخصومة التي قامت بين الطلبة العرب والاتراك فى معهد عنبر ، مما وصفته فى فصل سابق . وكانت هذه الوشايةسبب تنكر حسين عوني لي فى الامتحانات .

***

بعد الشهادة : بعد ان اديت فحص اكمال درس الجبر سنة ١٩٠٨ ونجحت فيه ، اصبحت مأذونا من المدرسة الاعدادية وحصلت على شهادتها ، فاقيمت لي الافراح والليالي الملاح .

وطلبت من والدي ان يرسلني الى الاستانة لاتمام التحصيل العالي هناك فوعدني بذلك اذا استقرت الحال بعد الانقلاب . وفى الانتظار انغمست فى تيار الحركة التي انبثقت عن الانقلاب ، ورحت احضر كل حفلة تقام . ولم يكن لنا هم الا انتقادالخطباء .

واقامت المدرسة الاعدادية بهذه المناسبة حفلة خطب فيها مدير المعارف ومدير المدرسة وبعض المعلمين . وقد طلبت من المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ان يكتب لي خطابا القيه فى هذه الحفلة ، فكتبه لي ونمقه ، وجعل موضوعه « الحث على العلم » فكان اول خطاب القيته وكان له وقع كبير على المستمعين ، وممن اثر فيهم خطابي المرحوم احمد الدالاتي ، وكان لذلك صلة بزواجي فى ما بعد .

الردة على الانقلاب

كان طبيعيا الا يرتضي السلطان عبد الحميد العهد الـــذي فرضه عليه الانقلاب ، وهو الذي اشتهر بجبروته العظيم وملكــه الواسع ، وكان الموت والحياة بين شفتيه ، ان ركب مشى الاكابر فى ركابه ، وان نزل وقفوا ببابه وخضعوا لموظفيه ، بل وخدامه .

وكانت ادارة البلاد فى عهده بايدي المتسلطين من الاعيـــان والوجهاء والحشوية من الشيوخ والسفطاء فانقطع رزقهم بعـــد الانقلاب ، وتهدم نفوذهم ،واضحوا مشردين فى الافاق . وعقـــب الصدمة الاولى استعادوا جاشهم ، فالف بعض رجال الدين بالاتفاق مع رجال عبد الحميد المعزولين وبتشجيع السلطان نفسه ، حركـة خفية ، ظهرت بعد بضعة شهور من الانقلاب باسم « الجمعيــة المحمدية » فى الولايات والعاصمة . وقد استطاعوا ان يستميلواكثيرا من العوام ، وراحوا يحاولون هدم ما انشأه الاحرارالعثمانيون .

وكان يتراس هؤلاء الرجعيين فى دمشق الشيخ ابو الهـــدى الصيداوي الحلبي ، فراح يتهجم على الاحرار ، ويحرض النـــاس عليهم ، فتصدى له المرحوم الشيخ رشيد رضا ، وهو من احرار العرب الميامين الذين جاهدوا لرفع الظلم وبث الاصلاح .

وذات يوم القى السيد رشيد عظة فى الجامع الاموي داعيا الى اصلاح الدين ، فنهض رجل يدعى الشيخ صالح التونسي ، وراح يخطب فى المجسد ضد الشيخ رشيد .

وقد اتى المرحوم الامير شكيب ارسلان على ذكر هذه الحادثة فى كتابه « السيد رشيد رضا ، او اخاء اربعين سنة » فقال :

« ذهب الشيخ الى دمشق عند اعلان الدستور ، وهناك القـى درسا يتعلق بالعقيدة ، ذهب الشيخ صالح الشريف التونسي ــ وكان

حاضرا ذلك الدرس – الى ان فيه تعرضا للاولياء ، وان فيه شيئا من الوهابية . وتكلم الشيخ بشدة ، فمال الجمهور ممن يقال لهم «الحشوية » الى كلام الشيخ صالح ، كما ان اصحاب النزعة الجديدة والدستوريين مالوا الى كلام الشيخ رشيد رضا ، وحصل ضجة عظيمة فى الجامع ، واتصلت بالحكومة فاستدعت الشيخ صالح الى دائرة البوليس بحجة انه اعتدى على الشيخ رشيد وانه كفره فشاع فى دمشق ان الشيخ التونسي اعتقل، واوجب ذلك هياج العامة فاجتمعوا وجاؤوا لتخليص الشيخ صالح من السجن والحقيقة انه لم يكن قد سجن بل استوقفوه بحجة انه هو الذي تعرض للشيخ رشيد . ولما رأى الوالي هذه الحالة ، وخاف الهرج والمرج ، ركب العربة واجلس الشيخ صالح بجانبه وانني لم احضر تلك الواقعة ولكنني سمعت خبرها . »

هذه رواية الامير شكيب عن الحادث اما انا فقد حضرت الواقعة فارويها كما شهدتها :

القى الشيخ رشيد رضا فى ٢٦ رمضان سنة ١٣٢٦ درسا تحت قبة النسر كان له وقع بليغ على الاهلين ، فتداعى الناس فى اليوم الثاني اي (٢٧ منه) الى المسجد ليسمعوا هذا الشيخ الفاضل ، وكثر الجمع حتى قدر بالالوف .

وبينما يلقي الشيخ رشيد رضا درسه ويشرح الآيات والاحاديث ويطلب الى الناس الرجوع الى سيرة الصحابة ، واتباع اوامر النبي والعمل بها، الى غير ذلك من النصائح والارشادات ، واذا بشيخ مغربي يدعى الشيخ صالح الشريف التونسي يشق طريقا بين الواقفين حتى وصل الى وسط الحلقة ووقف خلف الجالسين من المستمعين والشر باد فى عينيه. وبعد ان وقف قليلا يستمع ويجيل نظره بالحاضرين كأنه يزن الموقف ، صاح بصوته : ايها المسلمون اسمعوا لي كلمتين !

فالتفت الناس جميعهم اليه وسكت الشيخ رشيد ، فراح

الشيخ صالح يحذر من الوهابية ويقول : « واياكم ان يضلوكم عن دينكم ، ومنهم هذا الشيخ ـ واشار الى الشيخ رشيد ـ الذي يحرم زيارة قبور الانبياء والاولياء والصالحين ، ويمنع التوسل بهم ولا يعتقد بكراماتهم ، فهذا فعل الوهابية ، فانا احذركم منه فالانبياء والاولياء والصالحون يقربون الانسان الى الله ، ويقضون حوائج الناس اذا سمعوا الدعاء الخ . »

وهناك وقف الشيخ رشيد ليرد عليه وليثبت للحاضرين انه لم يذكر ما قاله الشيخ فى درسه ، ولكن الناس كانوا قد هاجوا وماجوا ، وكان بين الحاضرين عثمان بك العظم والقومسير يحيى افندي تللو ، وغيرهما من الشبان المنورين ، فالتفوا حول الشيخ رشيد واخرجوه من الجامع ، وخرج الناس من المسجد الىالشارع بهياج عظيم ، فذهبت الى داري .

وبعد الفطور سمعنا الضوضاء تأتي من الشوارع ، واذا باهل الاحياء قد خرجوا بمظاهرات مسلحة نحو سراي الحكومة يهتفون بسقوط مدير الشرطة العام اسعد بك ، وسقوط جمعية الاتحاد والترقي ، ومنهم من كان ينادي بسقوط « جمعية التفريق والتدني» واجتمع الوف الناس فى ساحة المرجة ، وكان والي سوريا يومذاك هو شكري باشا ، وقد اسماه الدمشقيون « شكرية خانم » لضعف شخصيته اذ كان يحكم الشام بالفعل إسعد بك المذكور .

وهجم المتظاهرون على دائرة الحكومة لاخراج الشيخ صالح من سجن النظارة ، وتعالت الاصوات :« اقتلوهم ! اقتلوهم ! » ، واتجه قسم من المتظاهرين واراد كسر باب الغرفة التي كان فيها اسعد بك مدير الشرطة العام . وقبل ان يصلوا الى غرفته ركض السيد شكري الطباع ، وهو من « قبضايات » حي القنوات ووقف امام باب غرفة اسعد بك وفتح ذراعيه ووضعهما على عضائد الباب قائلا : لا يصل احد الى اسعد بك الا على جثتي !

وانبرى ابناء محلته يردون الناس عن باب الغرفة الى انتمكنوا من انقاذ من فى داخلها ، وكان من بينهم الدكتور حسين حيدر من بعلبك ، وعمر فرحات مدير شرطة دمشق وعلى الاثر هرب اسعد بك الى بيروت .

هذه الفتنة كانت ولا ريب مبيتة ضد جمعية الاتحاد والترقي وساعد الجهل على اذكائها ونجح الرجعيون بمؤامرتهم التي قاموا بها خلف ستار الدين . وبعد المظاهرة نزل الوالي شكري باشا الى دائرة الشرطة واخرج الشيخ صالح وركب واياه عربته الخاصة ودار به شوارع البلدة ليرى الناس ان الشيخ اطلق سراحه . وهكذا انتهت الفتنة ولكن ذيولها لم تنقطع .

* * *

احمد كمكوم : هذا الحديث عن الهجوم على السراي يجرني الى حديث اخر ، من نوع شخصي . ذلك انني شاهدت ذلك الهجوم برفقة رجل مولج بالمحافظة علي ، يدعى « احمد كمكوم » . ولهذا الشاب حكاية اخرى ، اود ان اسردها على القراء ، للتدليل على بعض مظاهر العهد الذي نشأ فيه جيلنا .

كان احمد هذا ، نجل جندي مصري من جنود ابراهيم باشا ، تخلف فى دمشق واستوطنها ، ويدعى سليم كمكوم ، وكان له ثلاث اخوات ، فلما بلغ العاشرة من عمره ، غضب على اخته الكبرى – وعمرها ست سنوات – فخنقها ، ثم ذهب وخنق الثانية ، ثم وضع وسادة على رأس الثالثة وجلس عليها حتى ماتت . وبعد ذلك ذهب الى والده يبلغه انه قتل اخواته الثلاث ، خوفا من عارهن عندما يكبرن !

انهال ابوه عليه بالضرب ، وصدف ان مر فى تلك الساعة جدي محمد حسن البارودي ، فخلص الولد منه واخذه الى داره ، لانه صغير لا يعي ما يفعل ، فرباه عنده واصبح « قبضايا » مرهوب الجانب .

وذات يوم تشاجر احمد مع شاب اخرس ، فقتله بطعنة خنجر عن غير قصد ، فالتجأ الى دارنا ، وحماه جدي من الحكومة ، حتى هدات الاعصاب،واستطاع والدي استرضاءوالدي القتيل بدفعالدية.

بعد ذلك عاش احمد كمكوم فى دارنا،واقسم انهسيمسحاحذية العائلة البارودية حتى الموت ، وكان يأتي كل اسبوع بصندوق البويا ويمسحاحذيتنا ، ويدعو الله الا يميته الا على باب دارنا .

وذات يوم وكان قد تجاوز الثمانين ، شعر بقرب منيته ، فطلب الى زوجته ان تقوده الى دارنا ، حيث جلس امام باب الاسطبل، وبعد دقائق اسلم الروح هناك .

وكان كمكوم يحترف صنعة « البسطاطية» ، اي بيعالحوائج القديمة ، كادوات النجارة والحدادة ، وما اشبه ذلك من مطارق ومناشير وامواس . وكان يبيع حاجاته بالرخص لان بعضها «لقطة» او مسروق . وكان البسطاطيون من اشقى فتيان دمشق. ومنذ عشرين سنة تقريبا انتظمت هذه الحرفة ، وفتحوا لها الحوانيت. وهي رائجة اليوم فى سوق الدرويشية .

عبد الحميد

في العهد الذي نشأت فيه كان اسم واحد يتقدم على كل اسم ، ولا يذكره الناس الا بخشوع صادر عن رعب، هو اسم السلطان عبدالحميد الثاني بن عبدالمجيد بن محمود الثاني . كانت والدته سرية ارمنية ، ونشأ بين العبيد والسراري . واشتهر منذ صغره بحب الانفراد وقد اتهمه الكتاب الاحرار بعد خلعه بكل نقيصة ولم يذكروا له حسنة واحدة . على ان بعض الكتاب في ايام حكمه كانوا يصفونه بالحلم والشجاعة .

وعلى كل ، فقد كان عبدالحميد من ادهى ملوك هذا العصر واذكاهم . ولو كان على جانب من العلم والثقافة لما وقع بما وقع فيه من خطيئات ، ولما اعتمد في حاشيته المنافقين دون سواهم وكان يستشير المنجمين المشعوذين والدجالين من شيوخ الدين ويستخدم رهطا من شياطين رجال السياسة ممن اتقنوا النفاق والمداجاة . وقد جمع حوله جيشا من الجواسيس واطلق العيون في العاصمة والولايات بعد ان عطل الدستور وابعد الاحرار وحل مجلس « المبعوثان » وسجن المثقفين .

وكان عبدالحميد يرهب الانتقام ، فصار يصدق كل وشاية يحملها اليه جواسيسه . وقد عرف هؤلاء نقطة الضعف فيه، فراجوا يكثرون من تلك التقارير التي تثير الاعصاب ، ويزيدون استفزازه حتى جعل همه من الدنيا محاربة الاحرار ومقاومتهم ، والكيد لرجال الجمعيات الوطنية ، الى ان وقع الانقلاب ، كما اسلفنا . ولما لم يقدرعلى تحمل الحكم الدستوري،رتب بواسطة رجاله حركة رجعية اسمها « الجمعية المحمدية» ، انضم اليها رجال الدين ، وراس عليها احد اعوانه الدرويش « وحدني» ، وانتصر لها كل ناقم على العهد الجديد .



وقد اتصل عملاء هذه الجمعية بالجيش ، فنجحوا فى اجتذاب بعض الرقباء فى لكنة « اولو قشلة » فى الاستانة ، وتظاهر الجنود وهجموا على مجلس المبعوثان وقتلوا بعض النواب ، ومنهم المرحوم الامير محمد ارسلان شقيق المرحوم الامير امين ارسلان .

هكذا استعاد الرجعيون السيطرة على الاستانة بفضل دسائس عبدالحميد . ولكن الاحرار سارعوا الى ارسال جيشهم من سلانيك فوصل الى الاستانة واطفأ الفتنة وخلع عبد الحميد عن عرشه .

ومما يؤسف له ان الاحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع الى عبد الحميد ـ وهو سلطان المسلمين ـ غير عمانوئيل قره صو ، وهو زعيم يهود سلانيك . وكانت وقعت له حادثة تاريخية مع عبدالحميد ، طرده على اثرها من القصر ، ففي سنة ١٩٠٠ دخل قره

صو على السلطان ، بفضل القرين عارف بك ، وابلغه انه موفـــد من قبل الجمعية العالمية الصهيونية ، وانه قادم يطلب اليه اعطـــاء تلك الجمعية الاراضي الواقعة فى المثلث القائم ما بين يافا وغزه والبحر الميت ، مقابل خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهبية تدفعها الجمعيـــة الصهيونية ، هدية الى الخزينة الخاصة ، وعشرين مليونا تقرضهـــا الجمعية الى الحكومة دون فائدة لمدة تعينها الحكومة ، فغضـــب السلطان وطرده من حضرته .

وعلى الاثر الف اليهود جمعية سرية أكثر اعضائها من اليهـود المعروفين باندونمة (١) . فاتصلت باحرار الاتراك ، ودخل اعضاؤها حزب الاتحاد والترقي ، وتعاونوا مع كثيرين من شبان الضباط كأنور ونيازي ، وكانت لهم اليدا لطولى فى الانقلاب الثاني وخلع عبدالحميد

وظل اليهود ذوي نفوذ قوي فى اوساط الاتحاديين ، وكـــانوا فى جملة العناصر التي بثت الفساد فى الشعب التركي وفى حكامه .

مقهى الله كريـــم : بعد خلع السلطان عبدالحميد ، احـــال الاتحاديون على التقاعد قسما كبيرا من الضباط الذين ناصروه .

وكان الضباط المتقاعدون فى دمشق يجتمعون فى مقهى البغا ، قرب جامع « يلبغا» الواقع بين محلتي البحصة وسوق الخيل . فلما انضم اليهم الضباط الحميديون المتقاعدون تزايد عددهم ، حتـــى اصبح ذلك المقهى خاصا بهم تقريبا .

وكانوا يجلسون فيه طول النهار ، حتى اذا مر امامهم ضابط حديث ، يتبادلون النظرات ويرددون : «اللهكريم !» ، املا منهم فى أن يعود عبدالحميد الى العرش ويعودوا معه الى مناصبهم . ولكن عهد عبدالحميد لم يعد ، ولم يبق لهم من آمالهم سوى عبارة « اللـــه كريم !» التي اصبحت اسما للمقهى.

---

(١) دونمة لقب يطلقه الاتراك على جماعة اليهود الذين هاجروا الى تركيا من اسبانيا ، واستوطنوا سلانيك وهم طائفة يتظاهر افرادها بالاسلام ، مع احتفاظهم باطنا بالدين اليهودي . ومنهم جاويد بك وبعض كبا ر رجال الاتحاد والترقي .

الدستور العثماني : تحدثت كثيرا عن الانقلاب الذي ادى الى اعلان الدستور . والواقع ان الحكومة العثمانية اعلنت الدستور اول مرة سنة ١٨٧٦ ، وكان مؤلفا يومئذ من ١١٩ مادة ، اهم ما فيها بالنسبة الى ذلك العهد :

١ ــ المساواة بين الرعية على مختلف المذاهب والاديان .

٢ ــ حرية التعليم ، على ان يكون اجباريا ، وحرية المطبوعات .

٣ ــ الغاء السخرة ومنع المصادرة والتعذيب .

٤ ــ جعل اللغة التركية اللغة الرسمية للدولة .

ولكن السلطان عبد الحميد لم يلبث حتى تنكر للدستور الذي اعلنه ، فالغاه فى ١٤ شباط ١٨٧٨ ، اي بعد اعلانه بسنة واحدة . وظل يحكم البلاد حكما استبداديا حتى وقع الانقلاب سنة ١٩٠٨

وقد قرأت فى مجلة « الهلال » فى العدد العاشر من المجلد السابع عشر ، مقالا عن اسباب الغاء الدستور سنة ١٨٧٨ وحل مجلس « المبعوثان » ، يلقي التبعة على جهل الشعب لحقوقه وواجباته اذ لم يكن يفهم معنى الدستور والانتخابات .

وكان النواب مجموعة قوميات ، فمنهم التركي والعربي والسرياني والبلغاري والبوسني والسلافى والصربي والقلاخي والفارسي والكردي، ولكل منهم لغة مستقلة كما كانت اديانهم متباينة . وقد كان هذا التباين سببا فى مشاكل مذهبية ، اتخذها السلطان ذريعة لحل المجلس .

انا صاحب جريدة !

لم تمض مدة قليلة ، على الانقلاب ، الا واصبحت كلمة الحرية على كل لسان ، بعد ان كانت محظورة فى عهد عبد الحميد ، بيد ان الكثيرين اساؤوا استعمالها ، ظنا منهم بان الحرية غير محدودة .

وكانت الصحافة قبيل هذا الدور غير معروفة بل عديمة الاثر . ولم يكن منها فى دمشق غير صحيفة واحدة اسمها « الشام » كان يصدرها مصطفى افندي الشقللي ، مرة فى الاسبوع .

وكان الدمشقيون يسمون الجريدة « كزيطة » ، وهي تحريف كلمة « غازيتا » الايطالية . وما يزال بعض الشيوخ من عوام الدور الحميدي يسمون الجريدة « كزيطة » الى اليوم .

باعلان الدستور العثماني ، فتح باب الصحافة على مصراعيه ، فصدرت فى دمشق اول جريدة يومية متزنة وطنية هي جريدة « المقتبس » للاستاذ محمد بك كرد علي . وكانت ادارتها مجمعا للعلماء والادباء والمفكرين من العرب على اختلاف اقطارهم . ومما لا شك فيه انها كانت الاولى التي نبهت اذهان الناس الى واجبهم نحو وطنهم . واذا كان من فضل لاحد علي فى توجيهي من الناحية الوطنية ، فهو اولا للشيخ طاهر الجزائري المغربي استاذنا ، والى تلامذته الاحرار ، ومنهم الاستاذ كرد علي الذي صحبته مدة غير يسيرة من الزمن ، علمني خلالها كيف اطالب بالحق وانادي به .

وفى العام ١٩٠٩ خطر لي ان اصدر جريدة . وهكذا ، دون ان استشير احدا ، اصدرت جريدة اسميتها « حط بالخرج » ، وكانت اول جريدة فكاهية صدرت فى دمشق ، اخرجتها دون ان احصل على رخصة من الحكومة ، لانني كنت اجهل ان اصدار الجرائد يحتاج للرخصة ، كما انني كنت اتوهم ان راس مال الجريدة لا يزيد عن قلم وورقة .



الاستاذ محمد كرد علي مؤسس « المقتبس » في شبابه

وفعلا اصدرت العددين الاولين بتوقيع « عزرائيل » ، فراجا رواجا كبيرا ، وكنت أحررها باللهجة العامية .

ولما عرف والدي بالامر ، قامت قيامته وغضب غضبا شديدا ، واقسم ان يطردني اذا نشرت اسمي صريحا على الجريدة . وعلى الاثر اتفقت مع المرحوم « الدده » عارف الهبل على ان يضع اسمه فى الجريدة ، وان يتخذ صفة مديرها المسؤول ، على ان اتابع انا تحريرها ، فقبل . وهكذا وضعنا اسمه فى العدد الثالث واستمرت الجريدة فى الصدور ، فكان لها ضجة فى مختلف الاوساط .

ولما كنت اجهل اصول الصحف الفكاهية ، فقد استحضرت من القاهرة ما توصلت اليه من الجرائد الفكاهية الصادرة هناك ، كجريدة « ابي نظارة » وجريدة « المسمار » وغيرهما ، وجعلت اسير على نهجهما ، مما لم يكن معروفا فى دمشق قبلا .

ولما راجت الجريدة ، ومال الناس الى هذا النوع من الكتابة ، اخذ بعض الشبان يصدرون جرائد فكاهية اخرى . فلما رايت ان الجرائد قد تبذلت ، وان اصحاب الجرايد يبيعون انفسهم للاتحاديين مقابل عشرين ليرة عثمانية فى الشهر، تركت جريدتي وانقطعت عنها.

وكان الاستاذ كرد علي قد دعاني مرارا الى العمل معه في « المقتبس » ، فاعتذرت بانشغالي بجريدتي . فلما تركت جريدتي ، لبيت دعوته ، وقضيت عنده فى « المقتبس » مدة تزيد عن السنة ، تمرنت خلالها على الترجمة من التركية الى العربية . وكان يصحح لي اغلاطي ويشرف على لغتي . وبقيت بعد ذلك اتردد عليه الى ان سافرت الى اوروبا ، كما سيرد ذكره .

★ ★ ★

رفاقي فى الصف : بينما كانت الحوادث الانفة الذكر جارية ، كان رفاقي الذين تخرجوا من مكتب عنبر معي يستعدون للالتحاق بالمدارس العالية . وقد سافر اكثرهم الى الاستانة . وكان عدد ابناء صفي الذين نالوا الشهادة معي ١٦ شخصا ، هم السادة : سعيد الزيبق ، علي الابرش (اكمل الطب ونال الدكتوراه) ، خالد جوجه ، زكي القصيباتي ، ابراهيم الترك ، نسيب النابلسي (انهى مدرسة الملكية) . مصطفى الترك (اكمل الطب وصار طبيبا) عثمان السمان (اصبح طبيبا) ، ممدوح العابد ، عبد الرحمن الرشيدات العجلوني (حصل الحقوق) جلال البخاري (حصل الحقوق) محمود الصاحب (صار طبيبا) محمدسيف الدين (حقوق) فخري البارودي (صار تقاعدا) ، توفيق الداوودي ، مصطفى الصالحاني .

وطلبت الى والدي ارسالي الى الاستانة لاتمام تحصيلي ، فوعدني بذلك، ولكنه اصر بالتريث الى العام القادم، ريثما تهدأ الحالة هناك خشية ان تقع اضطرابات جديدة اذهب ضحيتها واكد لي انه



طلاب صفي الذين نالوا الشهادة معي ، وانا اتوسط الصف الاخير

سوف يرسلني حتما عندما يستقر الحال ، فصبرت على مضض ، وطلبت منه أن يجد لي عملا موقتا ، حتى لا ابقى عاطلا فالتزم لي «عشر» قرية متين ، وجبيته ذلك العام . وهكذا مرت سنة ١٩٠٩ ، والاضطرابات لما تنته فى الاستانة .

* * *

الاعشار : لا شك ان التزام الاعشار المشار اليه فى الفقرة السابقة ، هو تعبير مجهول عند الجيل الجديد ، لذلك اود أن اوضحه لهم .

العشر ضريبة كانت تحصلها الدولة العثمانية من رعاياها ، وهي

١٢،٥ بالمائة من مجموع محصول المزارع . كـان فى البدايـة عشرة بالماية ، فضمت اليه حكومة عبد الحميد اثنين ونصف بالماية حصـة للمعـارف .

وكانت الدولة تطرح الاعشار فى المزاد العلني ، لكي تقبض ريعها من الملتزم سلفا ، وتطلق له العنان فى تحصيلها من المكلفين . وكـم تحمل الناس من ظلم الملتزمين عند التحصيل ، فقد كان هؤلاء مـن ارباب النفوذ الاقطاعيين ، وكانوا يتفقون مع الحكام على سلب الفلاح، معتمدين طرقا خاصة فى التخمين ، وفى ابتزاز المال منه بدلا من اخذ الاعشار عينا على المنتجات السريعة العطب ، كالعنب والبطيخ . امـا المواد التي كانوا يأخذون عشرها عينا ، فهي الحبوب على الاطلاق ، والزبيب واللوز والجوز .

وكان فى كل قرية بضعة اشخاص يسمون بالعوانية ، اتخـذوا تحصيل العشر مهنة لهم ، فكان الملتزمون يستعينون بهم فى التحصيل مقابل نصيب من الارباح .

اعرف أحد المتنفذين فى دوما، كان يلتزم اعشار القصبة فى اكثر الاعوام ، واذا صدف أن التزمها احدغيره ، كان الملتزم يتنازل لهعنهـا مقابل أعفائه من الدفع بتاتا . واذكر انه لم يحصل منه احد مـن الملتزمين قرشا واحدا الا انا فقد حصلت ـ عند التزامي الاعشار ـ الحصة كاملة ، وقدرها اربعماية ليرة عثمانية ذهبا . على انني تركت اعشار الفقراء الصغار ، الذين يتجاوز المترتب عليهم ٤ ليرات ، ممـا ساعد على تنبه الافكار ضد المعشرين .

حياة التسلية

شغلني تحصيل الاعشار فى تلك السنة (١٩٠٩) اشهراً قليلة ، وما عدا ذلك كنت اقضي ايامي فى دمشق فى التسلية على اختلافها ، وكان ذلك بداية اصطدامات كثيرة بيني وبين والدي ، بسبب القسوة التي كان الاباء يعاملون بها ابناءهم فى ذلك العهد .

ومع اني وحيد والدي ، فانني لا اذكر انه قبلني الا مرة واحدة، وانا فى السابعة من عمري . كنت نائما وصحوت على نفس حار ، ففتحت عيني فرايت والدي منحنيا على فراشي يقبلني . هذا كل ما عرفته من قبلات والدي .

اما الضحك فى وجهي فلم أعرفه منه ، وقليلا ما رايت أسارير وجهه تنفرج عندما تبدر مني نكتة ما .

عودني والدي على الا اطلب منه شيئا مباشرة ، بل بالواسطة. وكان له صديق ودود ، قضى العمر فى معاشرته (مثلي ومثل صديقي حسني تلو الذي لم يفارقني منذ خمسين سنة) ، يدعى كمال أفندي المهايني من اسرة المهايني الكريمة ، وهي من اكبر اسر دمشق ، تقطن محلة الميدان الفوقا .

وكنت اذا احتجت الى شيء ما ، طلبته من والدي بواسطة كمال افندي ، فكان ــ مثلا ــ يأخذ لي اذنا كل شهرين او ثلاثة لقضاء سهرة فى احد المسارح، فيوافق والدي ويرفق اذنه مصحوبا بريالين: ريال اجرة «اللوج» وريال للشبرقة !

وكان رفاقي الذين رافقتهم منذ الصغر حتى فرقتنا الحرب العامة الاولى هم السادة محمد علي الدالاتي، نسيب البكري ، محمد المهايني ، شقيق كمال افندي المهايني



« شلة » رفاقي ، وهم حسب تسلسل الارقام : خليل ملص ، سامي البكري ، فخري البارودي ، محمد علي الدالاتي ، نسيب البكري ، محمد المهايني ، اسعد البكري ، حسن سلام ، مظهر البكري

هؤلاء السادة هم « الشلة » اليومية التي لم يفترق افرادها بعضهم عن بعض فى جميع اوقات الفراغ .. كان كل منا يدعو رفاقه الى المسرح فى دوره، او نمشي على اصول التعاون (عشرة حلبية) .

وفى رمضان احدى السنين ، بعد ان انهيت تعليمي وحزت الشهادة ، طلبت من والدي ـ بالواسطة طبعا ـ اذنا للذهاب مع رفقائي الى « التياترو » فسمح لي . وفى اليوم الثاني كررت الطلب فنفر والدي وقال الى كمال افندي المهايني : بلغ فخري انني لا اسمح بالسهر يوميا ، ولو فى رمضان .

جاءني الرسول يبلغني ذلك ، فقلت له : ان سني تجاوز العشرين ، واصبحت رجلا ، يمكنني ان ادير شؤون نفسي بنفسي ،

وانا كان والدي قد احسن تربيتي ، فعليه الا يخشى علي من شيء . واذا كانت تربيتي عاطلة ، فليس بامكانه تقويمي بعد الان ، ولهذا فاني اعد نفسي منذ الليلة حراً اتصرف باموري كما اشاء دون الرجوع الى والدي بشيء !

وهكذا خلصت من انتداب والدي ، فلم يعد يمنعني عن الخروج ، حتى مات رحمه الله .

* * *

مغاني دمشق : كانت اسباب التسلية العامة فى عهد شبابي محدودة ، فهناك المقاهي ، وهناك « التياترو » ، وهناك المغنيات . وقد اصطلح اهل دمشق على تسمية المغنيات البلديات بالمغاني ، واللواتي يأتين من مصر بالعوالم .

عرفت فى شبابي عشرات من « المغاني » اللواتي يحترفن الغناء والرقص ، وكان معظمهن من اليهوديات ، حتى ان احداهن « اشترتني » بربع ريال . ذلك انه كان فى دمشق عادة غريبة ، تقضي على الام بان تبيع طفلها رمزيا من احدى المغنيات ، فيحفظه الله عندئذ لاهله . هكذا « باعتني » والدتي من المغنية « هانولا » بربع ريال .

من اشهر مغنيات ذلك العهد رحلو الترك ، رحلو سلطانه ، بنات الشطاح ، نظيره عنبه ، بدريه مواس ، بدرية سعادة (وكانت جميلة العينين) ، بنات مكنو حسيبه ، مريم ، روجينا ، طيره ، شفيقه ، سمحه ، حسيبة اتشي . ومن اجملهن صلحه الابيض . وكان غواتها من ارقى الدمشقيين ، حتى ان احدهم كان ينام على عتبة بابها حتى الصباح ، اذا لم تستقبله !

ومن المغنيات المسلمات « رسمية جمعة » ، وكانت كفيفة البصر تضرب بالعود ولا تحضر الا حفلات النساء . ومنهن ايضا بنات « علي عمك » ، فهمية ضاربة القانون ، وشقيقاتها اللواتي كن يضحكن الحضور ، وبنت « ابو قفة » وهي من الضاربات على



مغنيـة يهودية مـن مغنيات عصرنـا الذي اتحدث عنـه

النقرزان ، وبنات « مكنو » وهن جوقة كاملة كـن يقمـن بافـراح دمشق من اعراس وسهرات ويستأثرن بالافراح الكبـيرة . وهـن اللائي اقمن لي فرحة العرس ولم يصعدن المسارح الا في ايام الحفلات التي كان يقيمها فرع جمعية الاتحاد والترقي .

وكان يفد على دمشق عدد كبير من مغنيات الاروام والارمن والاتراك ، ومن شهيراتهن « كوزل دنبل » ، كوزل بلانش ، كوزل فاني ، والجميع روميات .

وكان فى دمشق من المسارح ، مسرح قهوة الجنينة ، ومسرح الاصلاح خانة ، ومسرح القوتلي . ومن اشهر اصحاب المسارح المرحوم احمد اغا الخباز ، صاحب قهوة الخباز . وكان اذا جلس امام مدخل المسرح ، لا يجرؤ احد من فتيان البلدة ان يطل براسه على المسرح .

وكان فى سوق ساروجة ومحلة البحصة وزقاق رامي عدة شبان من « الزكرت » ياخذون الغفارات ، من اصحاب المسارح ومن الراقصات . واذا تمنع احدهم عن دفع (الغفارة) انتقموا منه ومن حضور حفلاته . وكانت الحكومة تتجاهل دائما هذه الاعتداءات ، الا فى حالة واحدة جرت على يد فرحات اغا ، وهو عبد من عبيد السلطان عبد العزيز المنفيين الى دمشق .

كان هذا العبد شرطيا جريئا اعجز اشقياء دمشق . وقد رايته مرة يدخل المسرح لتاديب بعض الفتوات المتسلطين على المسارح ، ويطردهم .

اما الكحول فكانت ممنوعة فى المسارح ، وكان المدمنون على الشراب يذهبون الى « الخمارات » ويشربون كفايتهم منها قبل الدخول الى المسارح . وكان بعضهم يخفي فى جيب سترته زجاجة « مفلطحة » تسمى « بطحة » يضع فيها عودا من القنب ، يرشف بواسطته الخمر من البطحة .

اما برامج المسارح فكانت واحدة تقريبا . يبدأ المنهاج بوصلة غناء من احد الرجال . وكان اكثر رؤساء التخوت من المصريين ، فيفتتح الفصل بوصلة موشحات ، ثم ليالي ، ثم تقاسيم ودور من النغمة التي غنوا بها الموشحات ، ثم يختتمون الفصل بقصيدة على الوحدة ، تفتتح بهذا البيت :

آه يـا انـــا ، ويش للعـوائل عنـدنـــا
قـم ضيـع العـذال ، وواصلنـي انـــا !

اما القصيدة فمن اي بحر ، ومن اي قافية ، وليس لها اقل ارتباط بالمدخل المذكور ابدا ، وانما كان هذا البيت فاتحة قصيدة ليعطي الوزن لاصحاب الالات .

وبعد انتهاء الفصل ينزل الستار للاستراحة . ثم يبدأ الرقص. وكلما انتهت راقصة ، استراحت النوبة عشر دقائق الى ان يأتي دور رئيسة الراقصات. وتكون عادة من ذوات الصوت الرخيم ، ومن ربات الصنعة ، فتؤدي دورها وتغني قصيدة على الوحدة ايضا.

ثم يمثل فريق من اللاعبين مع اجمل بنت بين الراقصات فصلا هزليا لتسلية الناس .

وهكذا كنا نقضي سهرات المسارح ، واستمرت المناهج على هذا الشكل حتى مدة قريبة .

* * *

روايات الفروسية : كانت الروايات فى زمننا شبه معدومة . وكان بعض الكتاب المتخرجين من المدارس الاجنبية يترجمون ما اشتهر من الروايات من تمثيلية ومن تاريخية .

اما الكتب التي كنا نعتمد عليها للتسلية فكانت سيرة عنتر ، وقصة الملك الظاهر (وهي غير مطبوعة ، تقع فى ٩٢ جزءا مكتوبة بالخط الثلث العريض) ، وقصص ابي زيد الهلالي سلامة ، والزير ابي ليلى المهلهل ، وغيرها من القصص التي تعلم الفروسية والبطولة.

وقد طالعت بعض هذه القصص وانا صغير ، وبعضها بعد خروجي من المدرسة . واذكر اني لما كنت فى الصف الثالث الاعدادي ، جاء الى دمشق رئيس وزراء دولة ايران ، وزار المدرسة يصحبه الوالي وكبار الموظفين ، ومدير المعارف حسين عوني . وكان

مكاني فى اخر الصف ، وخلفي نافذة يستطيع الناظر أن يشرف منها على الصف كله . وكنت غارقا فى مطالعة فصل من الملك الظاهر ، فلم انتبه لمجيء الضيوف ، ولا الى الجلبة التي حدثت فى الصف . ووقف الوزير والوالي يطلان علينا من النافذة خلفي ، فوقع نظر الضيف على الكتاب الذي اقراه ، ونظر الى كتب الطلاب بجانبي ، فاستغرب اختلافها ، وسأل الوالي عن السبب ، فنقل الوالي السؤال الى مدير المعارف ، فاطل علي . وما أن راى الرواية فى يدي حتى ثارت ثائرته وضرب على زجاج النافذة ضربا مزعجا نبهني من غفلتي، وصاح بصوت عال مرعب : نه دربو كتاب ؟ (يعني ما هذا الكتاب ؟)

فى الحال اطبقت الكتاب ، ورفعت يدي نحو السماء ، وقلت : دعا افندم ! دعا افندم !

وسبل الله الستر ، وجازت الحيلة ، او ان الرجل اختصرها . لا ادري .

* * *

الحكواتي : اما الحكواتي فلا يزال موجودا الى الان ، يقص على الاميين قصة عنتر والملك الظاهر ، جالسا على دكة عالية بحيث يراهم جميع من فى المقهى ، فيقرأ فصلا من القصة ، ويجبى « البخشيش »

هذه القصص وضعت على ما اظن ايام الحروب الصليبية ، وفيها شيء من اثارة النعرات، كان بالامكان تهذيبهاوحذف المضرمنها.

حياة البطالة

ذكرت فى فصل سابق كيف انني اصدرت مجلة « حط بالخرج » ثم سلمتها الى « الدده » عارف الهبل . ولقد ايقظت المـــدة التي حررت فيها ، وتلك التي داومت فيها فى جريدة « المقتبس » روح الصحافة فى نفسي ، فرحت افكر باصدار جريدة يومية .

ومن ممارستي لمهنة التحرير ، ادركت انه يتوجب على صاحــب الجريدة قبل كل شيء ان يملك مطبعة ، وان يعرف صناعة الطباعــة بالفعل لا بالنظر . هكذا احببت ان اتمرن على صف الحروف ، فدخلت بطولي وعرضي صانعا فى مطبعة « بدائع الفنون » ، لصاحبها السيد تاج الدين الصلاحي .

وكان رئيس العمال آنذاك السيد سعدي العمري ، فكنــت اقضي كل يوم اربع ساعات ، فى صف الحروف ، وبقيت مدة ستــة اشهر وانا اداوم على العمل مجانا ، حتى اتقنت شيئا من الصنعــة . وما زلت اذكر من رفاقي فى المطبعة ، « مستو الميداني »، غابت عني كنيته ، وما زال حيـــا .

بقيت فكرة الجريدة والمطبعة تراودني حتى سافرت الى اوروبا كما سيرد ذكره . ولكني بعد رجوعي من اوروبا عدلت عن الصحافة لاني رايت ان الصحيفة التي يمكنها ان تعيش ، يجب ان تكـــون صحيفة حزب قوي غني ، او ملكا لشركة قادرة على تمويل الجريدة، خصوصا فى بلاد دستورية الاسم استبدادية الفعل كما كانت حكومة الاتحاديين التي عقبت حكومة عبد الحميد ، ولذلك نفضت الصحافــة من راسي ، حتى ايام الكتلة الوطنية ، اذ اصدرنا مع بعض الاخـــوان جريدة « الايام » كما سيجيء .

واول مطبعة وصلت دمشق فى ذلك العهد هي مطبعة الحكومــة وكانت حجرية ، ويشرف عليها مصطفى افندي الشقللي . وبعد مدة

استحضروا لها الحروف . وكان رئيس عمالها يحي صدقي . ومن عمالها الذين اسسوا مطابع فيما بعد مصطفى شورى ، وتاج الدين الصلاحي وسعدي العمري ، وخليل الترك وقد جاء من الاستانة وهو الذي علم صناع دمشق صف الحروف .

واول مطبعة تجارية تأسست فى دمشق مطبعة «الفيحاء» لصاحبها فهمي شوري والثانية مطبعة «الانصاف» لصاحبها صالح الجيلاتي . وقد قلب اسمها الى مطبعة الترقي بعد حريق سوق الحميدية سنة ١٩١٢ .

***

والدي يعرقل سفري : فى عام ١٩١٠ بعد ان اخذت الاحوال تستقر شيئا فشيئا راجعت والدي ، راجيا تنفيذ وعده بارسالي الى الاستانة لاتمام تحصيلي ، فتهرب طالبا التأجيل ،خوفا منه علي ، بوصفي ولده الوحيد . وبهذه الفكرة قضى على اتمام تحصيلي فى الاستانة .

وكان اكثر رفقائي الذين خرجوا قبلي او معي من المدرسة بل وبعدي ، قدسافروا الى الاستانة . فلما يئست من اقناع والدي بالموافقة على سفري ، جعلت اضرب اخماسا بأسداس ، لايجاد طريقة تمكنني من اتمام تحصيلي ، خوفا من ان يتقدم علي رفقائي الذين سافروا الى الاستانة ودخلوا مكاتبها العالية ، فلم يخطر لي اي حل ، وقنطت من اكمال دراستي ،

***

حياة المقاهي : للمحيط تأثير عظيم على الانسان ، خاصة فى سن المراهقة وفجر الشباب ، والبطالة هي مفتاح الفساد . ولما كانت دمشق فى ايام شبابي خالية من كل ناد علمي او ادبي ، فني او رياضي ، كان من الطبيعي ان الجأ الى المجتمعات العامة والخاصة التي سأصف كل منها باختصار ، ليمشي معي القارىء فى هذه الرحلة ويتحسس بما كنت احس به .

بقيت مدة طويلة بلا عمل ، اقضي بضع ساعات فى ادارة جريدة « المقتبس » واخرج منها الى المقاهي ، وكانت مقاهي البلد قسمين : بلدي ومدني . فالبلدي ما تزال منه بعض النماذج فى ضواحي دمشق النائية ، يجلس فيها الناس على الحصر والكراسي المربعة،امام مناضد خشبية موازية للكراسي ، تقدم فيها النراجيل والقهوة المرة . هكذا يقطع الناس الساعات الطوال فى لعب الضاما والدومينو والورق والنرد

اما المقاهي المدنية فمقاعدها من الكراسي الخيزران ـ وفيها حسب قيمة المقهى ـ ما يلزم من ادوات اللعب كالشطرنج والنرد، والبيلارد ، والبيزيك وجميع انواع العاب الورق ، ويلعب فيها الناس مختلف انواع العاب الميسر الخفيفة كالبوكر والباشكاوالاوتوزبر

وكان اقدم مقهى فى دمشق مقهى « ديمتري » وهو يوناني، انتقل الى دمشق ، وفتح مقهى على الطرز الحديث ، فكان مجتمعا لارقى طبقة من طبقات الدمشقيين ، الذين لا يرتادون « القناقات » ولا يفتحون دورهم للاستقبال .

وكان مقهى ديمتري فى المرجه . وفى هذه الساحة نفسها فتح الخواجه ابو خليل الشماس مقهى منظما اسماه «زهرة دمشق» استحضر له ما يلزم من ادوات اللعب ، كما انه جعل فى صدره مسرحا وعلى جوانبه اواجا ، فكان يستعمله فى الليل مسرحا للتمثيل او الرقص والغناء ، وفى النهار للعب القمار ومختلف الالعاب .

وشارك ديمتري فى عمله رجل يدعى « ابو فاضل الاوبجي » ، وهو قبضاي معروف ، استقدمه ديمتري ليتقي به شر الرعاع ، وليحمي المحل من الفضوليين والمسترجلين .

وحدث مرة ان علق احدهم فى صدر المقهى صورة للشاعر الفرنسي الكبير فكتور هيغو . وكان ذكره يومئذ قد وصل الى الشرق فلمارأى ديمتري الصورة سأل ابا فاضل عنها . وكان ابو فاضل يجهل الاسم ، فتظاهر بالمعرفة، واجاب: هذا شيخ « قهوجية »باريس!

هكذا اصبح فيكتور هيغو عند رواد القهوة شيخ القهوجيـــة، وظلت هذه النكتة موضع التندر زمنا طويلا .

***

قهوة كركوز : الى جانب المقاهي ، كنا نتردد على محلات«خيال



خيمة الظل ، اي لعبة « كراكوز » ، كما تبدو فى لوحة زيتية للرسام التركي هـ. صايم

الظل » المعروف باسم « قهوة كركوز » ، وهي طليعة السينمـــا اليوم . فكان مدير اللعبة يضع فى صدر المقهى ستارا من قمـــاش فى وسطها قطعة مدورة من الخام الابيض ، فى اسفلها رف من خشب

يوضع عليه سراج من فخار ينار بزيت الزيتون ، ويقف الرجل خلف الستارة التي يسمونها « الخيمة » ويمسك بيده عصى رفيعة يحرك رسوم اشخاص من جلد ، اذا وضعت على الشاشة ظهر خيالها مجسما من عكس النور عليها من الخلف . ثم يتكلم الرجل ويحرك الخيال ، فيبدو وكأنه يتكلم . وكان يبدل صوته حسب اصوات الرسوم .

كان لهذه اللعبة مكانة فى القديم ، ولكنها تبذلت اليوم ، وادخلوا فيها بعض الكلمات البذيئة المستقبحة ، وهي على وشك الانقراض . اما فى زمننا فكان « الكركوز » تسلية فكهة ، يذهب اليها جميع الناس فى رمضان ، والاولاد فى بقية ليالي السنة . وكان ابطال الخيالات يتبدلون مع الفصول . اما اشخاص الكركوز الدائمة التي تظهر خيالاتها فى كل فصل فهي **« كركوز »** و **« عيواظ »** ، وعليهما تتركب اللعبة . ثم «المدلل» وهو اصفر خيال فى الخيمة ، و«قريطم» الخيال الذي يمثل الرجل المصري بكلامه ، و« ابو اركيلة » قشقو بكري مصطفى ، ام كركوز «بالتصغير» . وللخيمة حمار يدعى «كرش» وقد نشأت هذه اللعبة فى الصين وانتقلت الى الهند فالى بلاد فارس ثم الى بلاد العرب فبلاد الترك ثم الى البلاد الغربية .

وقد عني المستشرق الالماني جورج جاكوب (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧م) بدراسة هذه اللعبة ، فوقف على طبع اجزاء من كتاب « طيف الخيال » لابن دانيال .

وفى مكتبة المدرسة العلمانية الافرنسية فى دمشق كتاب باللغة الالمانية يبحث عن هذه اللعبة ، وفيه من الرسوم القديمة طائفة غير قليلة ، بطبع ممتاز وورق جيد جدا .

ومن مشهوري رجال هذه الصنعة فى زمننا خالد بن حبيب الذي كان والده حبيب من اعلم الناس بالموسيقى والانغام ، وهو استاذ المرحوم الشيخ ابو خليل القباني فى علم الموسيقى .



الى اليمين : « كركوز » ، والى اليسار « عيواظ » ، او حاج ايواد

وليت الحكومات تلتفت الى تنبيه اللاعبين ، واجبارهم على حذف بعض الجمل البذيئة التي يتكلمون بها ، وحذف بعض الخيالات كالخيال الذي يمثل شخصية طرمان .

انا جندى

كانت الخدمة العسكرية فى الزمن الحميدي اجبارية ، ومدتها سنتان . ونظرا لسعة المملكة كان الجنود يفرون بكثرة . وكان الناس يتذرعون بكل وسيلة للتهرب من الخدمة . على ان السلطة كانت تعاقب الفار بمضاعفة مدة الخدمة ، وابعاده إلى اقطار نائية حتى يعسر عليه الرجوع الى بلده .

وكانت الفتن قائمة دائما ، والحكومة فى شبه حرب مستمرة ان فى اليمن ، او فى بلاد الروم ايلى . وكان عدد القتلى كبيرا فى القطع المرسلة لتاديب العصاة، لذلك اصبح اسم الجندية مقارنا لاسم الكوليرا خصوصا فى الولايات غير التركية . وكان كل قادر على تقديم البدل النقدي عن الخدمة ٥٠ ليرة عثمانية ذهبية لا يتوانى عن دفعه مقابل الخلاص من الجيش .

ومع ان مدة الخدمة الفعلية سنتان ، فان اكثر الجنود كانوا يغيبون فيها الثلاث والاربع سنوات ، لانشغال الدولة فى محاربة العصابات ، وتمديد الخدمة الموقتة بين حين وحين .

وفى عام ١٩٠٨ جاءت قرعتي ، فباشرت بدفع البدل ، وتمت المعاملة فى ١٩٠٩ فبقي علي ان اتمرن على حمل السلاح مدة ثلاثة اشهر ، عينوها لي فى السنة التالية .

وفى الوقت المعين ، اي فى منتصف سنة ١٩١٠ التحقت بالقطعة التي عينوها لي ، وهي: « بشونجي اوردوي همايون ، طقوزنجي فرقة ، اوتوز اوجنجي الاي ، اوجنجي طابور ، برنجي بلوك ، برنجي طاقم ، برنجي مانفة » .

وكان مركز الطابور فى سراي العسكرية فى دمشق ، وقائده البكباشي (المقدم) سعدي بك الكحالة ، وهو يقيم فى باب السراي،



ايام الخدمة العسكرية سنة ١٩١٠ ، من أليمين : الرقيب عبدالله جاويش
النفر فخري البارودي ، النفر ممدوح العابد .

امام مدخل سوق الحميدية الان تماما . وكان مركز السرية فى البناية التي تقع خلف اللوازم ، ومحلها دار نقطة الحليب فى شارع النصراليوم

دخلت على سعدي بك ، وهو صديق لوالدي ، وتربطنا به قرابة بعيدة ، فاستقبلني استقبالا حسنا ، وكان من ابناء قرعتي

ممدوح العابد ،التحقت واياه فى يوم واحد ، وقيدونا فى قطعة واحدة لذلك ارسلنا سعدي بك معا ، برفقة احد الضباط الى قطعتنا ، فسلمنا الى « جاويش » الحظيرة التي قيدونا فيها ، حيث انضممنا الى بعض « البدلجية » امثالنا فى « القاووش » ، اي المهجع .

كان الجندي المكلف يسمونه « معذبا » ، وكان القاووش يتسع لماية جندي ، ارضه من التراب ، فيه « تتخيتة » للنوم والجلوس ولكل جندي فراش من خيش محشو بالتبن او شبشول الذرة ، و« جانطة » قمطر لوضع حاجات الجندي وكبوت (يسمى باغمورلق) وهو للارتداء والغطاء ولم يكن فى الزمن الحميدي «بطانيات» للجنود بل كانوا يلتحفون الاردية فقط ، ولكنهم بعد الحرية سلموا الجنود بطانيات .

وكان المهجع قليل النوافذ رائحته عفنة كريهة ، يزيد بكراهتها رائحة اقدام الجنود عند عودتهم من التدريب حينما يقلعون احذيتهم ولم تكن النظافة معروفة .

وكان صغار الرتباء يتحكمون بالجنود تحكيما غريبا . ولا يعرف هذا الا الذي عاناه بنفسه . وانه لمن الضروري فى رايي ان يتمرن طلاب المدرسة الحربية بضعة شهور فى القطع العسكرية ، ليروا بأعينهم كيف يعامل الرتباء معيتهم من الجنود ، لان الضابط الذي يدرس بنفسه ذلك يستطيع ان يحسن ادارة معيته .

مهما يكن من امر فان مدة التدريب القصيرة افادتني فى الحرب العامة افادة حقيقية ، وقد تعلمت خلالها جميع الدروس ، خلافا لرفقائي الذين كانوا يفرون من التعليم .

لقد مارست جميع اعمال الجندي ، من استعمال البندقية الى حمل القروانة ، وحلقت شعري عند حلاقي الجنود الذين كانوا يجلسون فى السنجقدار امام مدخل القلعة ، فكان المزين يسلخ الجنود كالماشية ، مقابل اجرة خمس بارات ، وتسمى « ام الخمسة » . وما زلت اذكر كيف كان المزين « يقيش » الموسى على حذائه !

وكان اكثر رفقائي تملصا من واجبات الجندية لاسباب صحية، السادة لطفي الحفار واخوه جمال الحفار ، حسن العاني ، عبدالقادر ابو نصوح الدوجي ، ممدوح العابد .

ويوم انهينا التعليم واخذت « التذكرة » ، يعني شهادة انهاء الخدمة ، اشتريت علبة من القصدير ، ذات شريط يدخله الجندي المسرح فى رقبته ، فتتدلى القصديرة من تحت ابطه ، ويضع فيها « التذكرة » . وكان من عادة الجنود المسرحين ان يشتروا بندقية صيد مزدوجة ، ويسيروا بها فى الاسواق . وقد قمت بهذا الدور فحملت « جفتا » وقصديرة التذكرة لاري الناس اني انهيت خدمتي!

اذكر انني دخلت الى حانوت فى سوق الحميدية ، لاطلع صاحبه – وهو صديقي – على التذكرة، واخبره بخلاصي من الجندية وانتقالي الى صنف الرديف (اي الاحتياطي) . وكان يجلس عنده ضابط برتبة رئيس ، فنسيت ان القي عليه التحية العسكرية .

وبارك لي الحضور بالخلاص ، ولكن الضابط حدجني بنظرة قاسية وسالني : هل انهيت تعليمك ؟

فاجبت بالايجاب وعرضت عليه التذكرة ، فقال : ماذا تعلمت ؟

قلت : جميع ما يلزم الجندي .

قال : وهل اتممت تعليمك حتى استحققت هذه التذكرة ؟

فلما اجبت بالايجاب قال : انك لم تزل عجمي (وهي كلمة تعني ان الجندي لم يزل غرا . والفر هو الجندي الحديث يطلق عليه هذا النعت الى ان يحسن التعليم ويقوم بوظائف الجندي تماما) .

سألته السبب، فاجاب : ما هو اول درس اخذتموه ؟

قلت : احترام الآمرين .

قال : واين احترام الآمر (وتقال له « ما فوق ») .

فانتبهت انني لم اؤد له التحية العسكرية ، فنهضت واقفا فى الحال ، واخذت الوضع العسكري ، وحييته معتذرا ، فضحك وقال : الان عرفت انك اخذت تذكرتك بحق . وصافحني . ومنذ ذلك اليوم لم تفتني فرصة للاعراب عن احترام الجميع ...

دار العجزة والميتم

دخلت السنة ١٩١١ ، وانا ما زلت بلا عمل ، اعيش بلا غاية ، واقضي اوقاتي فى السهرات الخاصة وفى المحلات العامة ، وكلما مر الزمن ، ازداد خلقي ضيقا ، مع ان الله خلقني حركة دائمة ، لا احب ان ابقى دقيقة واحدة فى حالة البطالة .

ولما ضاق ذرعي بالبطالة خطر لي ان اؤلف جمعية خيرية تقوم بتأسيس دار عجزة وميتما للاطفال ، فكتبت سلسلة مقالات في جريدة « المقتبس » تحت عنوان « اين من يحبون المشاريع الحيوية» عالجت فيه حالة المتسولين والعاجزين .

وكان فى دمشق يومئذ جمعية للشحاذين ، لها شيخ حرفة وجاويش ودفاتر لضبط اسماء الشحاذين فى دمشق من نساء ورجال . وكان الجميع يطيعون الشيخ ولا يخرج احدهم عن ارادته، وكان للشيخ زبانية لتاديب المخالفين من زعران اهل هذه الحرفة . فاكثرت من الكتابة عن المتسولين المحترفين، الذين يوجد بينهم اغنياء حقيقيون ، ورحت افضح اسرارهم فى كتاباتي فقامت قيامتهم وجاءني شيخ الشحاذين مع بضعة اشخاص من « وجوه » هذه الحرفة يطلبون الي — او يامروني امرا — بان اكف عن التعرض لهم، والا قتلوني . وكان تهديدهم لي جديا ، فاقلعت عن الكتابة بهذا الموضوع وتركت المشروع ، لاني لم اجد فردا واحدا اتعاون معه على القيام به ، واخذت اطبع على حيطان دمشق — بواسطة لوحة من القصدير المحفور — عبارة « تعلم يا فتى فالجهل عار » . واني اذكر جيدا انني لم ادع حائطا من حيطان الشوارع والحارات ، حتى « الدخلات » الصغيرة فى اي محلة من محلات دمشق ، الا وكتبت عليها هذه الجملة .

وفى عام ١٩١٩ ، بعد الحرب عاودت الكرة فى هـذا البحث فـي جريدة « المقتبس » فكتبت مقالات متسلسلة تحت العنوان السابق، ولكن ذلك لم يفدني ، ولم اتمكن مـن تاسيس غرفةواحدة ، فعدلت وبقيت انتظر فرصة اخرى ، حتى سنحت فى سنـــة ١٩٤٠ ، فاعدت الكرة ، وتاسست دار العجزة والميتم كما سيجيء ذكره .

زواجي

كانت والدتي وجدتي لوالدي قد فاتحتاني سنة ١٩١٠ بالزواج فرفضت البحث فى ذلك وقلت انني لن اتزوج قبل اتمام تحصيلي . ثم اعادتا الكرة بعد ذلك ببضعة اشهر ، فاصررت على الرفض ، ولكنهما ظلتا مع ذلك تبحثان عن فتاة مناسبة لي .

وفى سنة ١٩١١ عادتا الى ملاحقتي ، وقالتا : اذا وجدنا لك فتاة صالحة خطبناها وسيجري « كتب الكتاب » ، فاذا ذهبت الى التحصيل تبقى الفتاة بانتظارك ، فيجري العرس !

وهكذا اقنعتاني ، فطلبت اليهما فى اول الشروط ان تكون صاحبة اخلاق حسنة ، وان تعرف القراءة والكتابة بصورة جيدة ! وتتقن ادارة البيت .



خال والدي خليل افندي البكري
الذي كان له علاقة بمشكلة زواجي

وهكذا راح اهلي يخطبون لي . فى ذلك العهد لم يكن الخطيب يرى خطيبته ، بل يكتفي بوصف قريباته لها ، فيقلن له : عيونها كذا ، شعرها كذا ، وجهها كذا ، طولها كذا . وعلى الوصف يتوكل الرجل على الله ويعقد العقد ، وسعدك يا ابو السعود !

وعلى هذه الطريقة جعلت جدتي ووالدتي تصفان لي البنات

اللواتي خطبتاهن لي الى ان سمعت من ابنة خالي بوصف قرينتي الحالية ، كريمة المرحوم احمد افندي الدالاتي ، فطلبت الى والدتي خطبتها فابت جدتي ، بدعوى ان خال والدي خليل افندي البكري خطبها لاحد اولاده ، فتمنع ابوها ولذلك لا يمكن لجدتي ان تقدم على هذا العمل .

اصررت على طلبي . وكان والدي صديقا للمرحوم احمد افندي الدالاتي ، ولم يكن قد بقي عنده غير فتاة واحدة عزباء ، هي اصغر اولاده . وقد طلبها الكثيرون من اهل دمشق فرفض والدها زواجها

ولما لمس والدي اصراري حار بالامر ، وقال : لا اريد ان تقوم بيني وبين احمد افندي الدالاتي برودة او عداوة ، ولذلك فاني لن اطلب منه ابنته خوفا من الرفض ، فاذا رفض فستكون بيننا عداوة ابدية لا سمح الله !

بقيت القضية بيننا : جدتي فى عناد ، ووالدي على الحياد ، وانا فى اصراري على رايي بازدياد ، الى ان علم بالامر محمد افندي المهايني — صديقي وابن عمة الفتاة — فتدخل فى الامر وسعى مع شقيق الفتاة منير الدالاتي ، لاقناع والدة منير بقبول هذه الخطبة . وعلمت ايضا من المهايني ان الدالاتي افندي راض عني منذ سمع خطابي فى مكتب عنبر عند اعلان الحرية . وفهمت اننا اذا خطبنا الفتاة فانه لن يتاخر . وعلى الاثر تقدم باسم والدي احد اصدقاء الطرفين سعيد افندي العسلي ، وخطب لي الفتاة من ابيها ، فوعده بالجواب بعد ثلاثة ايام ليستخبر الله .

وذهبت الى قصبة دوما فى اثناء هذه المدة ، وفى اليوم المعين ذهب العسلي لاخذ الجواب ، فاذا به بالموافقة . وفى الحال دعوا والدي حالا ، واحضروا احد المشايخ وعقدوا العقد وانا انتظر فى دوما . واذ «بصراحيتي ليموناضة» ، اي شراب الليمون ، تصلانني الى دوما ، فى صينية من الفضة محاطة بقطعة من التول الحريري ، مربوطة بشريطة حريرية خضراء ، دليلا على عقد العقد .

وقبل وصولهما الى الدار،جاءني المبشر يركض يطلب مني بشارته . ولا تسل عن الفرح الذي اصابني فقد اصبحت زوجا بحمد الله ، ومع ذلك لا اعرف الزوج التي اختاروها لي ، ولا تمكنت من رؤيتها الا يوم عرسي كما سيجيء .

ومن الغريب اني قبلت بالزواج وانا دون عمل ، وليس لي وارد يكفيني وحدي ، فضلا عن الزوجة . ومن السخف ان يتزوج المرؤ اذا لم يكن ذا صنعة يكفيه واردها لفتح بيت . ومن العار ان يتكل الولد على ثروة ابيه ، مهما كان غنيا فيتزوج ، وهو مفلس . ولذا فاني انصح كل شاب الا يتزوج الا اذا كان له من الوارد ما يكفيه وزوجه ، والاسرة التي ستتشكل منهما .

المجتمعات الخاصة

ما دام حديثي قد تناول المقاهي والمحلات العامة فى عهدشبابي فانني ساكمله الان بحديث عن المجتمعات الخاصة . فقد كان للدمشقيين مجتمعات خاصة ، شتاء فى الدور وصحوا فى البساتين، وكانوا يسمون الدور التي يجتمعون فيها « قناق» وهي كلمة تركية اصلها « قوناق » يعني الدار ، اخذها الدمشقيون عن الاتراك واستعملوها « للبراني » اي لمحل اجتماع الرجال .

وكان اكثر القناقات يبعد عشرات الامتار عن دار سكن صاحب القناق ، فيختلف اليها اصدقاؤه الخصوصيون وزواره ، ويعقدون « الادوار » وقد اصطلحوا على اطلاق اسم « الدور » على اجتماع « شلة » من الرفاق من طبقة واحدة ، فيقضون سهراتهم فى احد القناقات او البيوت . وكان لكل فرد « دور » معين ، فتكون الادوار اما يومية او اسبوعية . فاذا كانت يومية يكون الدور الاول عند زيد فى اليوم الفلاني ، وفى اليوم الثاني عند عمرو والثالث عندبكر، الى أن ينتهي الدور عند اخر فرد من افراد الشلة، ويعود من جديد.

وكانت اسباب التسلية فى الادوار بسيطة ، يدور اكثرهاعلى المقرعة ، كلعبة « عبك » ،وهي ان يخبىء احدهم خاتما مثلا او حاجة صغيرة فى « عب » أحد الرفاق ، اذ يدخل يده فى جيوب الحاضرين، ويترك الحاجة فى جيب من شاء ، ثم يسأل الاول « اين الحاجة ؟» فيقول فى جيب فلان ، فاذا اخطأ يقرعه مقرعة على كفه ، ثم يسأل الثاني الخ. ومن يحزر يقوم ويستلم المقرعة مكانه . وهكذا يقضي معظم الوقت بضرب المقارع !

لعبة السلطة : ومن العاب التسلية لعبة السلطة، فيقف احدهم وبيده المقرعة ، ويعطي كل فرد من الافراد اسما من اسماء

البقول التي يعمل منها السلطة ، وتسمى هذه البقول « زرزاوات » ثم يقول : « اني اريد ان اعمل صحنا من السلطة ، وعندي كل شيء من الزرزاوات الا البقدونس » .

ويكون الجميع منتبهين فيقول من تسمى بالبقدونس: « بقدونس فى ولكن ملح ما فى » ، فيقول من تسمى بالملح : « ملح فى ، ولكن كزبرة ما فى » . وهكذا فالذي ينتبه ويجيب بالسرعة دون توقف نفد من ضرب المقرعة . واذا تأخر ضربه الواقف مقرعة على يده ، وهكذا يمضي وقت طويل فى ضرب المقارع .

لعبة المروحة : هذه اللعبة لعبة ضرب ايضا ولكن ضربها صفع بالكف على ظاهر الكف ، لا ضرب مقارع .

يقف صف من اللاعبين بحسب اتساع المكان ، ويقف خلف الصف صف اخر بعدد افراد الصف الاول .

يضع افراد الصف الاول ايديهم على رقابهم مشبكة الاصابع بحيث تلتصق الكفوف برقبة اللاعب ، ويهز افراد الصف الثاني ايديهم المرفوعة هز المراوح ، وتبقى اوجه الصف الامامي متجهة الى الامام . ثم يبدا اللعب بان يصفع لاعب من الصف الثاني رفيقا واقفا فى الصف الاول . وعندئذ يلتفت المضروب ليحزر اليد الضاربة فان اخطأ عاود الصفع ، وان حزر انتقل الصف الاول مكان الصف الثاني ، وهكذا حتى يمضي ردح من الزمن والصفع قائم !

هكذا كان الوقت يسير والعابنا ضرب وصفع . وكم كنت احاول ان اغير شيئا من اساليب التسلية بقراءة شيء من كتب التاريخ وكتب الادب ذات الفائدة ، فلا انجح الا نادرا . وما تزال الى اليوم الالعاب عند بعض طبقات الناس تسير على هذا الشكل ، فنحن نهزل ونضرب ، وغيرنا يشيد ويجد ...

الطــــقة : قلنا ان الادوار كانت يومية او اسبوعية ، ووصفنا اليومية كما مر . اما الاسبوعية فتقضي بان يبقى الدور عندزيد طوال الاسبوع . وفى اخر يوم من اسبوع الدور يقدم صاحبه الى رفاقه ما تيسر من الطعام الخفيف ، كالجبن والشاي وبعض الحلــــوى والفواكه ، على ان بعضهم، خاصة من حديثي النعمة ، كانوا يالفون فى تقديم الاشكال والالوان ، من اعمر الموائد . وكم جلبت هذه العادة الشجار بين الاصدقاء ، اذ يريد كل منهم ان يقدم طعاما احسن مــن غيره، كأنها مباريات فى الاكل. وليتهم كانوا يتبارون فى تقديم المبرات الى المؤسسات العامة كالمستشفيات والمياتم ودور العجزة وغير ذلــك ولكن ما العمل وبلادنا ويا للاسف لم تعتد حتى الان على القيام بمثل هذه الاعمال ؟ وكم راينا وارثا غنيا يصرف الليرات بالالوف على اشياء تافهة ، ويضن على وطنه بليرة سوري لاي مشروع خيري اواجتماعي فلا حول ولا قوة الا بالله !

***

قنـاق البكـري : مــن القنـاقات المشهورة قنـاق آل البكري ، وكانوا ممثلين فى شبان ، ذوي اعمار متقاربة ، هم رشدي افندي وانور افندي ومدحت افندي ، وكلهم اولاد خليل افندي البكري . كانوا مشهورين بالفتوة ، ولهم ولع بالصيد والقنص ولعب الشطرنج وكش الحمام . ولم يكن قناقهم يخلو ليلة من الزوار . ولا بأس من ذكر شيء عن سهراتهم ليطلع القارىء على لون من حياتنــا فى ذلك العصر .

كانت السهرة تبدأ من الساعة السابعة مساء تقريبا . وكلمــا جاء احد من الرفاق ، قام له الجميع . وبعد ان تقدم اليــه القهوة ـ المرة طبعا ـ ، يشترك فى الحديث مع الحضور ، وهو يدور عادة حول الصيد ، وتربية الحمام والشطرنج ، فيروى كل واحد اطرف ما جرى له من الحوادث .

تربية الحمام : كانت تربية الحمام تشكل صنعة قائمة بذاتها ، لم تزل شائعة الى اليوم على ايدي « الحميماتية » ، الذين يجمعون انواعا من طيور الحمام ، ويسكنونها اماكن خاصة فى اعالي الدور ، فى محل يسمى « حضير » ، وهو بناء منفرد كالغرفة ، داخله مربعات خشبية تغطي الحيطان ، فيوضع فى كل مربع زوج من الحمام ، وكل نوع له اسم خاص ، فمنها البربريسي والاخضر ، والابلق ، والازرق ، والابيض والمرقع ، والحلبي ، والبغدادي ، والقلاب . والابلق منه ابلق بحلسه ، وابلق بخضرة ، وغير ذلك من الانواع .

هذه الطيور لها ساعات معينة لاطعامها ولاخراجها من الحضير ، ولا بد لكل حضير من باحة سماوية تطير من عليها الطيور وتعود اليها . والحميماتية قسمان : محترف وغاو ، فالمحترف يكون على الاكثر من اصحاب الرجولة ، يجمع اقوى اصناف الطيور وارخصها ثمنا ويدر بها على الطيران ، ولهم فى تدريبها اصول وعادات ساكتب فيها كتابا خاصا اذا ساعدني الوقت .

وللحميماتية آلات للصيد من حبال المرس ، منها طارات بمرس تسمى شبكة ، تشبه بضفر حبالها شبكة صيد السمك . ومنها آلة ثابتة تسمى « سقلب » هي الاخرى من نوع الشبك ، ولكنها مثبتة بعصي رفيعة على حافة ظهر الحضير ، فعندما تهبط الطيور العائدة من التمرين ، يقلب الرجل السقلب عليها اذا كان بينها طير او طيور غريبة ، فيصيدها ويبيعها ، او يعيدها الى اصحابها مقابل مبلغ من المال يتفق عليه بينهما ويسمى هذا المبلغ « الفكاك » ، وقد يبلغ ١٠ ليرات ذهبا . وهناك محترفون يعيشون من اقتناص حمامات سواهم ، ثم يرجعونها مقابل الفكاك !

وكثيرا ما كنت احضر الى حضير اولاد خالي ، واقضي الساعات بالفرجة على « كش الكشه » ، واختلاط الكشات فى السماء ،

واهتمام اصحابها بابعاد طيورهم عن سماء الحضير . من ذلك ان صاحب الطيور المدربة ، اذا كان ساكنا فى محلة ابي جرش في الصالحية مثلا ، يستطيع ارسال كشة « طيوره » الى سماء الميدان الفوقاني ، او الى سماء باب شرقي . والكشة هو اسم مجموعة الطيور التي يطلقها صاحبها ، سواء أكان عددها خمسة ام خمسين.

وللحميماتية المتخصصين معرفة تامة باشكال الطيور ، فاذا اراد احدهم خلط كشته بكشة غيره ، يصفر للطيور فتطير وتحلق فوق داره ، ويحمل بيده « كشاشة » وهي عصا ، يزيد طولها عن الثلاثة او الاربعة امتار ، فى راسها شلة من الخرق ، يحركها للطيور فتعرف من حركتها الاتجاه الذي يراد أن تتبعه فتسير فيه . واذا عاكسته ، يضع الرجل فى « المداحة او الصبان » قشرة ليمونة معصورة ويضربها فيها . وكثيرا ما يصيب طائرا فيرميه ، وبهذا تذل الكشة وتتجه الى الناحية التي يريدها .

وعندما تصل الكشة الى كشة اخرى طائرة ، اي الى الكشة المرسلة اليها ، تختلط الطيور وتدور مجتمعة طول المدة التي يريدها صاحبها .

والحميماتي يعرف من مكانه انواع الطيور المختلطة ، وقوة افرادها . ومتى راى ضعف الطير الذي يريد صيده ، اخرج طيرة انثى من الحضير ، وقبض عليها من تحت جناحيها وجعل يهز بها ، وهي ترفرف بجناحيها ، الى ان يرى طيوره اتجهت نحوه وقربت من داره ، فيلقي الطيرة امام باب الحضير ويختفي فى مكان لا يظهر منه . فتهبط الطيور ، وبينها الطير الغريب الذي اصطحبها . وبمهارة زائدة يرمى عليه السقلب او الطارة ويصيده . ولا تسل عن الفرح الذي يصيبه عندما يصيد طيرا ثمينا !

وكان رزق عشرات الحميماتية فى زمننا على الله ، وعلى صالح بك العظم ، الذي كان له غرام زائد فى هذه اللعبة . ولا استطيع ان احصى الاموال التي دفعها فكاكا عن طيور ، ولكن بامكاني ان اقول انه دفع مدة غوايته ما يزيد عن العشرة الاف دينار ذهبا . وكان حديثه بين الحميماتية لا ينقطع مدة حياته ، وما يزالون والى اليوم يتندرون باحاديثه .

* * *

الشطرنج : قلت ان الشطرنج كان موضوع الحديث في القناقات . وبعد ان يشبع الحضور من الكلام عنه يحضرون الرقع ويتبارى اللاعبون ، كل طبقة مع الطبقة المعادلة لها .

وكان من مشاهير اللاعبين فى دمشق فى ذلك الزمن الخصى سعيد افندي ، وهو احد عبيد السلطان عبد العزيز ، نفاه السلطان عبد الحميد مع من نفى من رجال معية عمه . ومن الدمشقيين المشهورين بهذه اللعبة محمود افندي حمزه مفتي دمشق الشهير ، والسيد توفيق ، والسيد رسمي اولاد الميداني وكان يعجبني فى هذه اللعبة التي تعلمتها ان اللاعبين كانوا لا يلعبون على رهن ، اي لا يقامرون بها ، بل كانوا يلعبون على انواع من الفاكهة ، ياكلونها في اخر السهرة .

وهكذا كانت تقضي ليالي القناقات فى الالعاب ، وفى النرد والورق . ومن الذ العاب الورق لعبة « ابو الفول » ، وهو اخراج جميع الصور ، وترك صورة واحدة بين الورق ، وتفريقه على الحاضرين ، فيصيب اللاعب بضعة اوراق يزاوج بينها ، ويرمي الازواج . وما زاد يسحب الواحد من الثاني ، بالدور ليزوجوا الاوراق المفردة . ومن بقي بيده الصورة يغنون له بقولهم « بو الفول عليك فطور ! » ويصفقون ، وهكذا تنتهي السهرة !

من الوان الحياة في دمشق

النور في الشوارع : قبل تمديد الكهرباء في دمشق ، كانت الشوارع تنار بمصابيح البترول ، وكان اكثرها يطفأ ، لان الاولاد يضربون الواح البلور بالحصى فيكسرونها ، ويدخل الهواء فيطفىء النور . وكان الناس يسيرون وفي ايديهم مصابيح من ورق، يضعون فيها الشموع تنير لهم الطريق ، تسمى « فنار » . وقد مر وقت منعت فيه الحكومة سير الناس بعد صلاة العشاء بدون مصابيح

ومن الطرائف ان صالح بك العظم ، وهو من اعظم ابطال دمشق ، كان في شبابه مغرما باحدى اليهوديات . وقد سهر عندها في احدى الليالي ، يرافقه السيد سليم الميداني ، وهو من نوادر زمانه .

وبعد منتصف الليل بساعتين أو ثلاث، خرجا من حارة اليهود عائدين . وبينما كانا يجتازان محلة مأذنة الشحم ، صادفا دورية البوليس ، تقدم رئيسها ورفع مصباحه ليرى المارين بلا مصباح ، فلما تميز صالح بك ، وهو يترنح ، قال له : يا سيدي انت ابن الحكومة ، وانتم تضعون القوانين ، فلماذا تخالفها ؟

قال : باي شيء اخالفها ؟

قال : نك تسير بلا مصباح ، وهذا لا يجوز .

قال : مصباحي معي ، اذهب في طريقك ! وساله الشرطي عن مصباحه ، فادار له ظهره . ورفع ذيل سترته ، وقال : هذا مصباحي!

ومشى صالح بك ، وخلفه السيد سليم ، فقال له المفوض : وانت يا رجل ، اين مصباحك ؟

قال : انا سائر على ضوء البك !

فضحك رجال الدورية وذهب كل واحد في سبيله !

التشليح فى الحارات : كان الامن شبه مفقود فى تلك الايام وكثيرا ما كان اللصوص يسلبون من يستفردونه فى المحلات النائية من البلدة . ولم يكن فى دمشق فى الليل محل امين، الا المواقع الممتدة من موقع السنانية الى باب الجابية ، فالسنجقدار ، فساحة المرجة . اما بقية الاحياء فكان المار فيها ، خصوصا بعد منتصف الليل ، يحتاج الى حراس وخفراء .

مر شرطي يهودي مرة فى العمارة ، فصادف ابا فياض البغل ــ وهو احد الفتيان المشهورين بالرجولة ــ يعربد وفى يده خنجر ، يعترض به المارة ويضربهم بقبضة الخنجر على رؤوسهم ، ولا يجرؤ احد على معارضته . فلما راى الشرطي اليهودي تقدم اليه وضربه على راسه بالقبضة ضربة قوية طفر منها الدم ، وغسل وجهه ورداءه .

ولما رجع الشرطي الى داره ، وراته زوجته ، ولولت وصاحت: ويه ... شو صابك ؟

قال : البغل ضربني !

قالت : ويه عليك ، شو فوتك عالخان ؟

قال : ولك ليس الذي ضربني بغل حيوان ، بل هو بغل انسان!

فقالت له : اذن اذهب واشلح بدلة السلطان ما دمت لا تقدر على حمايتها !

* * *

القبضايات : كلمة ماخوذة عن التركية ، معناها الخال الغليظ « قبادايي » ، وتطلق عندنا على كل موصوف بالرجولة ، او « زكرت » وفى بغداد يسمونه « ابو جاسملر » وفى حلب يسمونه الحاج حمده . وهناك رجال يدعون هذه الصفة زورا ، وهم من الزعران المعروفين بال « بابا حسن » .

ويسيطر القبضايات عادة على المحلة، ويضعون انفسهم فى خدمة وجهاء المحلة من باشاوات وبكوات وافندية .

تضامن اهل دمشق : كان معروفا عن اهل دمشق فى ذلك الحين انهم متحدون ، يطيعون زعماءهم ، وينتصر بعضهم لبعض ضد الغريب ، عاملين بالحديث : « انصر اخاك ظالما او مظلوما » ، بعكس هذه الايام التي عزت فيها الصداقة والوفاء . واضرب على ذلك المثل التالي :

حدثني الشيخ حسن النحاس قال : فى ايام راشد ناشد باشا ، اختلف المفتي ونقيب الاشراف فى دمشق . وكان المفتي من العلماء المشهورين ونقيب الاشراف لا يحمل من العلم الا العمامة الخضراء . وكان سبب الخصام استهتار النقيب بمنصبه وبواجباته الدينية .

وكان مدير الامن العام يسمى « الاي بكي » ، وهو اكبر ضابط فى الجاندرمة ، اي الدرك . فوقع بينه وبين النقيب نزاع شديد ، وتربص بالنقيب الدوائر حتى اخبروه انه فى بستان من بساتين دمشق مع خليلة يحبها ، فانتهز الفرصة وذهب الى البستان بقوة كبيرة ، واعتقل النقيب وخليلته وعاد بهما الى السجن .

وذهب احد المنافقين الى المفتي ليبشره بسجن عدوه ، فلما سمع الخبر نهر الرجل وكذبه امام الحاضرين ، وارسل خلف السجان حالا ، ولما جاء قال : ستصلك سيدة بعد قليل ، فضعها حالا مكان السجينة التي ارسلوها اليك اليوم . واياك ان يفهم احد ، واذا فهت بكلمة فليس لك مقام فى هذه البلدة !

ووعد السجان بتنفيذ الامر ، لان مقام المفتي كان اعظم مقام فى الدولة ، يعني شيخ الاسلام فى العاصمة والمفتي فى عاصمة الولاية .

ثم ارسل المفتي دون تمهل رسولا دعا زوجة النقيب، فحضرت سريعا، ودخلت الى الحرم فافهمتها زوجة المفتي القضية ، وارسلوها الى السجن ، ووضعوها محل الخليلة المسجونة .

وبعد ان اطمأن المفتي للعمل ارسل واستدعى جميع وجهاء الشام ، وكان بينهم الشيخ عبد الله الحلبي شيخ الشام واعلم علمائها فى زمنه ،واخبرهم ان العداوة بين النقيب وقائد الدرك توترت الى درجة تجاسر فيها « الالاي بكي » على سجن النقيب وزوجه : هذا فى سجن الرجال وهي فى سجن النساء ، وان الحال مع هؤلاء الحكام لم يعد يطاق ، فثار ثائر القوم ، وتشاوروا ماذا يعملون فقر القرار بعد المشاورة على مراجعة الوالي لاخراج النقيب، ومجازاة المفتري .

وهكذا ذهب كل واحد الى محلته و « دبوا الصوت »، واوعزوا الى القبضايات ان يهيئوا انفسهم وجماعتهم ، وان ينتظروا الاوامر التي تصدر عن المفتي ، فان سمع الوالي شكواهم واخرج المساجين وجازى المفتري كان بـه ، والا فعليهم ان يهجموا على السجن ويخرجوا النقيب .

وبالفعل ، ركب العلماء والزعماء دوابهم وذهبوا الى دار الوالي ، وكان ذلك عند منتصف الليل . وكانت دار الوالي واقعة فى البنايات المجاورة، لجسر الصالحية، التي فتحوا فيها شارع الرئيس والشارع الجديد . ولما وصلوا الى دار الوالي ايقظه « الحرم اغاسى» واعلمه بمجيء زعماء دمشق ، فخرج مضطربا ، فقدموا له مفاتيح الدور واوراق « الطابور » ، يعني اوراق التمليك ، وقالوا : نحن

لا نبقى فى هذه البلاد عرضة للظلم والجور !

سال عن السبب ، فاخبروه ان « الالاي بكى » سجن النقيب وزوجه ، وانهم لا يرضون الا باخراج السجين وطرد المفتري من سلك الدرك وسجنه مكبلا بالحديد فى قلعة بعبدا ليلقى جزاء الافتراء

فهدأ روعهم وطمانهم ، وامر باستحضار الالاي بكي ، فجاء مسرعا . ولما راى هذا الجمع حار فى امره ، وساله الوالي بحضور الجميع : لماذا سجنت النقيب وزوجته ؟

قال : يا افندينا (وهذه كلمة تطلق على السلطان وعلى وكيله فى الولايات والايالات) : انى وجدته بحال مريبة مع مومس فى احد البساتين ، فاودعتهما السجن الى ان يجري التحقيق معهما !

فقال المفتي : يا دولة الباشا ان المراة التي كانت معه هي زوجة النقيب لا خليلته ، وهي بالسجن الان ، فاذا تحقق لكم هذا ارجو اصدار امركم باطلاق سراحهما ومجازاة المفتري .

فارسل الوالي زوجته مع بعض الحراس الى سجن النساء ، وكان فى باب البريد ، فاخرجت المسجونة وحضرت بها الى دار الوالي واخبرته ان المسجونة هي زوجة النقيب ، فامر حالا باطلاق زوجها ، وقطع خرج الالاي بكي وامر بسجنه مكبلا واعتذر عن هذه الهفوة .

وفى اليوم الثاني جاء النقيب الى دار المفتي للشكر ، فلم يقبله وقال له ان العداوة التي بيننا لم تزل هي هي !

وبعد بضعة ايام ركب المفتي بغلته وسار الى دار النقيب ، ولما درى هذا ان المفتي فى طريقه الى داره ركض حافيا لاستقباله ، فاختلى المفتي بالنقيب وقال : ان عداوتنا لم تزل باقية واني اتيت اليك لنذهب الى الوالي ونستعطفه حتى يطلق سراح المظلوم الذي سجنه لاجلك يا ظالم !

وسارا سوية الى السراي ، ودخلا على الوالي ، فاستقبلهما بالحفاوة، فقال المفتي : يا مولانا ان اصل النقيب اجبره على الحضور بين ايديكم ليطلب منكم العفو عن الالاي بكي ، وقد اخبرني انه منذ ذلك اليوم الى اليوم لم يغمض له جفن من تاثره ، وانه عفا عن هذا الذنب ،وهو يطلب منكم العفو واطلاق سراحه وارجاعه الى رتبته ، على ان يكون مقامه في غير هذه البلدة .

فاثنى الوالي على علو النفس و « هذه الاصالة والنجابة » وامر باطلاق سراحه وارسله بوظيفته الى مدينة حماه .

وهكذا بقي راشد ناشد باشا طول مدة ولايته لا يرى الا تكاتف الزعماء والعلماء وكلمتهم واحدة ، حتى انه لما خرج من الشام وخرج الناس لوداعه عند جسر « توره » بكى ، فسأله احدهم : لم تبكي يا افندينا ، أعلى فراق دمشق ؟

قال : لا بكيت لاني طول مدة اقامتي فيها لم اقدر ان افرق بين اثنين من اهلها !

اما المفتي فقد اوعز الى النقيب بالاستقالة سترا لطابقه وخوفا من سقوط الاعتبار لمقام نقابة الاشراف ، فاستقال النقيب ، وكانت استقالته سببا للصلح بينه وبين المفتي .

من هذه القصة نعرف مقدار تماسك الدمشقيين في ذلك الزمان اما اليوم فما لي ان اقول الا : لا حول ولا قوة الا بالله ...

ليالى الانس

كان والدي رحمه الله من اصحاب القناقات المشهورة ، وعنده كل ليلة كيف وطرب . ومنذ وعيت على الدنيا وانا اسمع الغناء في قناق والدي ، اذ كانت له تقريبا جوقة خاصة ، افرادها من ابرع الموسيقيين فى ذاك العصر .

وكانت سهرات والدي العامرة ليلية تقريبا ، وجوقته مركبة من عمر الجراح القانوني ومن اخيه ابراهيم العواد ، واحيانا يأتي معهما اخوهما الثالث محمد الجراح العازف الوحيد على الكمان في عصره .

ولما اختل ابراهيم العواد استبدله والدي ببديع محسن ، وكان من اجمل شبان عصره . اما المغنون فكانوا الشيخ عبد الله ابو حرب والشيخ رشيد عرفه ، وهما من المداومين ليليا . وكان الغناء القديم كله موشحات وادوار وقصائد على الوحدة .

ولكثرة سماعي لهذه الاغاني فى كل ليلة تولدت عندي ملكة السماع . وكنت اصلا اميل الى الموسيقى . ولعلي ورثت ذلك عن جدي لوالدتي امين العلمي ، الذي كان من الموهوبين بصوت حسن مع عزف لطيف على الناي والفلوت وكان جدي حتى وفاته من زبونات القناق الدائميين ، وكذلك كمال افندي المهايني الذي لم يترك والدي منذ شبابه حتى فرق بينهما الموت ، فكانا يجتمعان يوميا فى السفر والحضر ، فى الليل والنهار . وقل ان ترى صداقة كصداقتهما التي كانت مضرب المثل فى دمشق .

وكان من هذه الشلة السيد رشيد الحنـاوي ، من وجوه التجار ومن ذوي الذكاء النادر . وكانت السهرات تضم اظرف الندماء المشهورين فى دمشق ، كالشبوعن وعبده الحمامي وكزاير ،

غيرهم ممن خصهم الله بخفة الروح وسرعة النكتة ، كما ان اكثر الموسيقيين كانوا كذلك من اخف الندماء روحا واسرعهم نكتة . وعندما يجتمع هؤلاء وهؤلاء معا في ليلة أنس ، لا يستطيع الانسان مهما كان منقبضا ، الا ان يتبذل ويساهم معهم في النكات . وساضع كتابا عن ظرفاء دمشق في القرن التاسع عشر اذا مد الله بالعمر ، اذكر فيه كل نديم ظريف مع شيء من نوادره ، كحسن حمد الله وسليم شاكر وبكران وابو علي انبوبا وغيرهم .

وكان لوالدي في قصبته دوما ندماء ظرفاء لا يقلون خفة عن ظرفاء دمشق المذكورين . كان والدي يقضي نهاره في العمل ويعود مساء الى دمشق . فاذا قضي عليه المبيت في دوما ، كان يأتيه الندماء،ومنهم مصطفى صلاح، عبد الحميد شاكر،مصطفى حسون،عبدالله الحلاج وغيرهم . ومن اظرف الندماء في ذاك العصر عبدالنافع ابو غنيم، وكان يجمع والدي في الاعياد والمواسم بين ظرفاء دمشق وظرفاء دوما فيقضون ساعات فريدة .

ومن مشاهير المغنين في دوما آنذاك عبد المولى، وكان يغني على طريقة القبضايات ، مواويل بغدادية وشروقية وعتاباً ، يصحبه على الناي سعدو حسون . ومن لطائف ما وقع من النكات ، نكتة عملها ابو غنيم عبد النافع ، ما زال الناس يتندرون بها الى اليوم وهي :

كان زاهد افندي الالشي قاضيا في دوما ، وهو من المشهورين بخفة الروح . جاءه محمد عبد النافع ابو غنيم يوما بعرضحال يقول فيها أن الله سبحانه وتعالى خلقه بغير ارادته ، ودفع به الى خضم هذا العالم دون ان يستشيره ، وحكم عليه بقدرته أن يتزوج ففعل ، وانعم عليه باولاد من ذكور واناث ما يزيد عددهم عن تلامذة مدرسة ابتدائية ، ومن كثرتهم افلس ، فكانوا سببا لمصيبته ، ولذلك فانه يرجو من حضرة القاضي جلب المدعى عليه ليقاضيه ويسأله لماذا خلقه ، ولماذا قطع رزقه ، حتى انه اوعز الى اصحاب الحوانيت من

التجار ان لا يسلفوه حاجة ، مهما كان ثمنها . وهو يطلب الانصاف من القاضي لانه لم يعد يحتمل مرارة هذه الحياة !

اخذ القاضي المعروض وذهب الى القائمقام ، وكان الامير امين ارسلان على ما اظن ، فاطلعه على القصة ، وقال له : سأنظر في قضيته بعد اتمام القضايا التي بين يدي اليوم ، واطلب اليك ان تحضر الجلسة .

وهكذا كان ، فعقد القاضي جلسة خاصة ، ومنع حضورها الا على كبار موظفي الدولة . ثم طلب المدعي ، وهو يتكلف الجد وسأله عن دعواه ، وطلب اليه ان يحضر المدعى عليه ، فاجابه : انه حاضر ناظر في كل مكان !

ثم قال : ان قصتي بيدك مكتوبة !

فامره ان يرويها ثانية ، فاعاد شكواه ، واصفا البؤس الذي يحيط باسرته من كثرة افرادها ، فقال له القاضي : منذ متى هذه العداوة بينكما ؟

قال المدعي : منذ مدة طويلة !

سأله القاضي : منذ تلك المدة الى اليوم كم قاض جاء الى دوما ؟
قال : كثيرون !

فقال القاضي : لماذا لم تتقدم اليهم بهذه الشكوى ، لينصفوك في دعواك ؟

فاجاب : ان الذين تقدموك لم يكونوا مثلك اصحاب جراة ومتانة ، والجميع كانوا يخافونه ، ولهذا لم اقدم لاحد شكواي . ولما رايتك انك الوحيد الذي لا يخافه ، اتيتك بشكواي طالبا منك الانصاف !

فصعق القاضي ، وصفق الحاضرون . وبعد ان ذهبت موجة لدهشة قال القاضي : هل تريد الصلح مع خصمك ؟

فلما اجاب بالايجاب، قال القاضي: اذن تعال في المساء الى داري!

وفي المساء ذهب عبد النافع الى دار القاضي فقدم اليه خمسة دنانير ذهبية، واعطاه طحينا ومؤونة الدار لمدة سنة من زيت ودبس برغل وزيتون ، وقال : اكتب براءة بينكما .

فكتب له براءة ، فوضعها القاضي في جيبه وقال للشهود لحاضرين بعد ان اشهدهم فيها : اني ساوصي بانزالها في قبري ، واذا حاسبني الله ساعطيه هذه البراءة الشاهدة بتخليص ذمته ليعفو عني !

بهذه الصفحة انتهى الجزء

الاول من مذكرات البارودي

المرجو من القراء تصحيح الخطا قبل المطالعة

جدول الخطا والصواب

صفحة	سطر	الخطا	الصواب
٥	١٢	خالد	خالدا
١٤	٢٠	محمد	احمد
١٩	٢١	والعبـارة	والعبادة
٢١	١٣	فوزي باشا	عطا باشــا
٢٢	٥	مدرسة	المدرسة
٣١	٦	تاريخ	التاريخ
٣٨	٤	اذز نيز	اذن سيز
٤٢	٤	وخلفني	وخلصني
٤٣	العنوان	من حياذلك	من حياة ذلك
٥١	٩	حسن	حسني
٥٨	٦	جلال باشا	جمال باشا
٦٤	٤	طويل	طويــلا
٧٠	١٣	الشيـخ ابو الهدى	احدرجال الشيخ ابو الهد
٨٢	٧	متين	متين
٩٠	١٧	براهم	براه
٩٢	٧	الجيلاني	الحيلاني
٩٢	٢٦	كل	كــلا
١٠٠	١٩	عجمي	عجميا
١٠٤	٢١	ليستخبر	ليستخبي
١٠٤	٢٢	به بالموافقة	به يظفر بالموافقة
١٠٨	١٢	سوري	سوريــة
١١١	٣	طيور	طيوره
١١١	٢٣	ليزوجو	ليزاوجو
١١١	٢٤	بو الفول	ابو الفول
١١٣	١٧	بدلة	بذلــة
١١٥	١٨	الوالي واقعفق	الوالي في
١١٥	٢٢	الطابور	الطابو
١١٦	٤	بعيدا	بعيدة
١١٨	٢٤	كالشبوعن	كالشبؤون
١١٨	٢٤	كزاير	كزابر
١٩١	٨	قصبته	قصبة

ثمن النسخة
١٠٠ ق ل.س.
١٠٠ فلس. مل

طبع على مطابع «دار الحياة» ـ بيروت